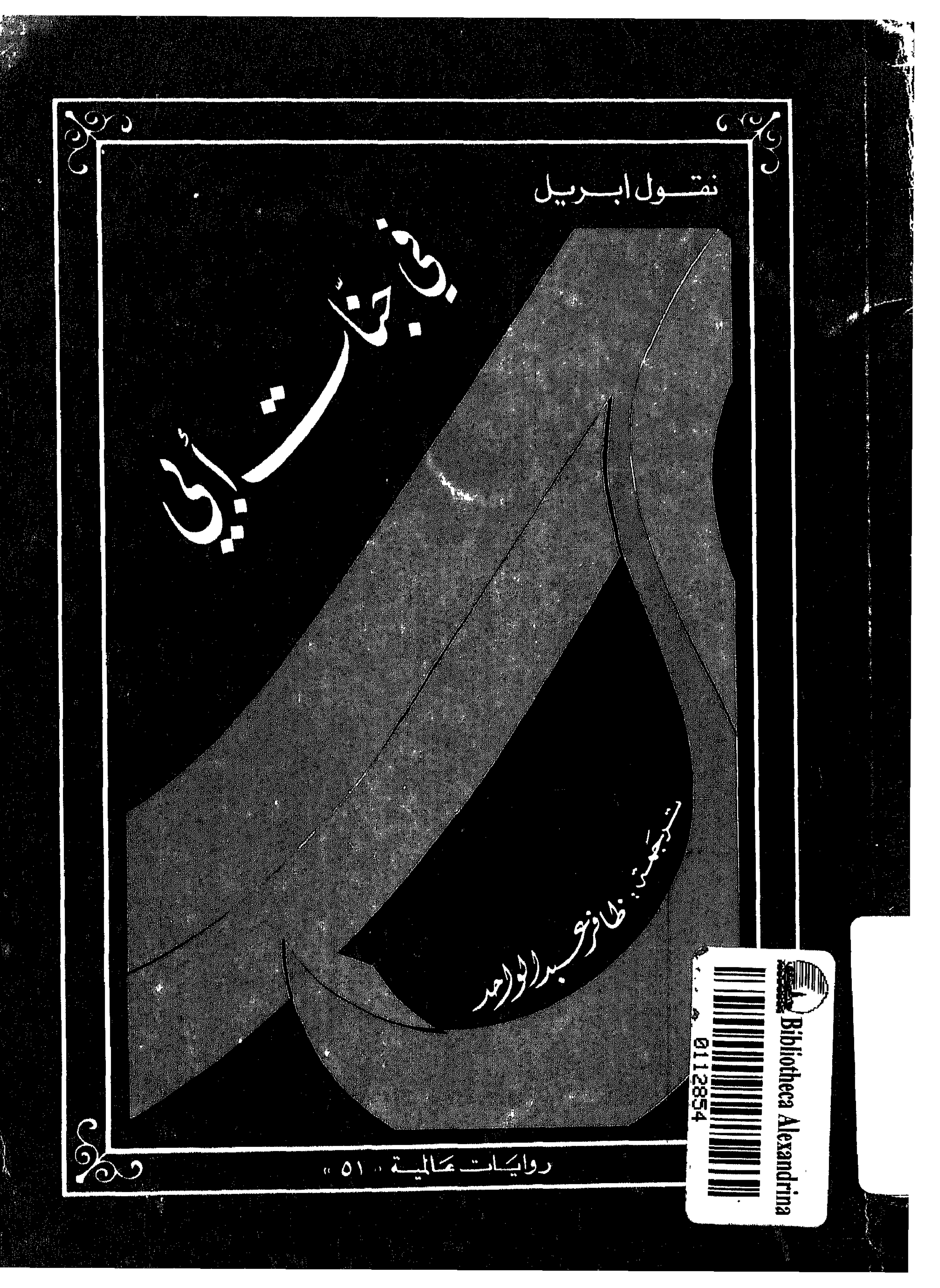

نقـــول ابـــريـل
في جنات أبي
ترجمة: ظافر عبد الواحد
روايـات عـالميـة « ٥١ »

الإشراف الفني : زهير الحمو

في جنات أبي

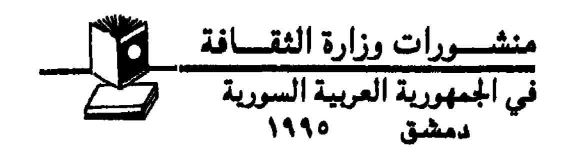
روايــات عــالميــة

« ٥١ »

نقـــول ابـــريـل



ترجمة:
ظافر عبد الواحد



العنوان الأصلي للكتاب:

NICOLE AVRIl

Dans Les JardinS

de Mon pere

في جنات أبي = Dans les Jardins / نقـول ابريل ؛ ترجمة ظافر جمال الدين عبد الواحد . – دمشق : وزارة الثقافة، ١٩٩٥ . – ١٠٤ص ؛ ٢٤ سم . –
(روايات عالمية ؛ ٥١)

١- ٨٤٣ ف ا ب ر ف ٢ - العنوان ٣- ابريـــل
٤ - عبد الواحد ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ١٢ / ١ / ١٩٩٥

«لايصنع الإنسان غير صورته»

بابلو بيكاسيو

أنا في الخامسة. نقلني مجهولون على طول دهليز. النور لايقهر. لن تنفك عجلات العربة الصرير في ذاكرتي.

أقاد الى موضع لا أوقن بالعودة منه. لا أتسآل قط. لا أقدر على الجواب. الأمر الوحيد الهام في هذا الدهليز الذي لاينتهي: هو أنني لم أستطع وداع أمي. لماذا لم تكن هناك عندما اتوا لجلبي؟ يبدو لي أن غيابها يعرضني للخطر. أنا بردانه. بردانه جداً.

تسربوا الى الغرفة، بعد بضع دقائق. كنت ممدة على سريري أما سرير امي فكان ١/٤ فارغاً لاريب في انها خرجت تتزين. في انتظارها، صفحات الثلجة البيضاء بيد أنني أسعى لإزالة تكشيرة، الساحرة التي كانت تجمدني فزعاً، فتح الباب، ظننت أمي عادت إلي. مالبثت أصواتهم ان ردتني الى الصواب. لكن تلفظ كلمات لا أفهمها اقتربوا مني. ربما كانوا ثلاثة أو أربعة، مجلببين بالبياض. انهضني أحدهم، وأخذ يدفعني بعد زلقي الى العربة. وظن نفسه ماكراً اذ يؤكد أننا سنقوم بنزهة. كان يكذب. لايذهب المرء في نزهة على عربة عالية القوائم، وهو عار تحت غطاء لايقي من البرد. وددت لو أتوسل إليهم للانتظار، لدعوة ا مي، للجري بحثا عنها. أنا طفلة صامتة. لم انبس ببنت شفة ولم يفهموا.

ستتألم أمي عند اكتشاف اختفائي. ألست سبب كل عذابها؟ كانت فخورة بي فيما مضى كانت تدخلني حجرتها وتقعدني على كرسي أمام مرآة

الخزانة. وتمشطني ساعات. وهي واقفة خلفي. وألفي الوقت طويلا، بيد أنني أحب الفرشاة في شعري وعبارات التعجب التي تطلقها تارة منحية لتراني عن قرب، وتارة متقهقهرة، ذراعها في الهواء، منقطعة عن الحركة. وانصاع دون استيعاب اللذة التي تجنيها من هذه العمليات المعقدة. فلا أرى فرقاً بين ان يصبح شعري أشعث أم منتظماً، مرفوعاً الى قمة الرأس أم منثوراً على كتفي. كنت أنا. كما أن أمي تظل أمي أياً كان ثوبها. يستمر في حماستها لتمشطني ضرب من عدم الرضا. فلا يبدو لها نجاحاً إلا مؤقتاً وسرعان ماتنكث صنيعها طامحة الى نتيجة أفضل.

عندما أرافقها في دكاكين الشارع الرئيس في (رمبوية) وتوجه الي البائعات، والزبونات أحياناً، مجاملات، أراها سعيدة أخيراً. وأفرح أنا كذلك، لابما يقلنه – حبابة أو جميلة أو فاتنة لاتعني لي شيئاً – بل بالابتسامة التي تضعها هذه الكلمات على شفتيها. ونعود الى المنزل ونحن ندندن رغم رزمنا، يدا بيد، والجسم جفيف. وأشعر أن لي شأناً في رضاها كل هذا بعيد. أما الآن فإنها تتنهد. كلما وقعت عيناها علي. اعلمتني نظرتها انني تغيرت. خلال بضعة أشهر أصبحت البنية التي تستدعي الاطراء، شخصاً يسكت أمامه. كان في البدء ضرب من الاستفهام. أليس لدي وجه صغير؟ هل كانت صحتي جيدة حقاً؟ وهذا الوجه؟ ألا يقال انه غريب بعض الشيء في هذه الأوقات الأخيرة؟ يقلق الان لاسناني. هذه الضخامة في حنكي الشمالي، التي لايا ماكانت ترى ثم أضحت تزداد بياناً لكل الناس، الاي، ماهو أصلها العجيب.

مالبث حكيم الاسنان ان اعترف بعجزه. ولها الاطباء بدورهم بخدي دون أن يجدوا جواباً ينتظره أبواي. ثم ران الصمت حولي. فما من اطراء أو استفهام. ينظر الي دون ان ينسبوا ببنت شفه. وقلما أعير هذا اهتمامي لولا نظرة، أمي الحزينة.

وعندما تقعدني الآن أمام خزانة حجرتها، ذات المرآة، فانما سعياً لستر عدم تناظر وجهي بصنعة التمشيط. ولاتبدو لها النتائج مقنعة. ذات مساء، لا

أدري قط متى، فقد بقيت الجملة وحسب في ذاكرتي ونسيت الزمن الذي لفظت فيه، قالت أمي: «إذا شوهت، فسنعيش في (نيول) لابد ان الخطب أصبح جللاً حتى لتنوي أن تأوي الى قرية في أرض نائية، مع أنها لاتحب غير جادات المدن الكبيرة. لاشك في أن (نيول) ليست بعيدة عن (روشل) الرينو على أية حال رغم ماصاقبة المدينة والمحيط. أما أنا، فلم أقل (نيول) أبداً، بل أوثر ان أحفظ لهذا الموقع هويته التامة: نيول على البحر.

تعيش اسرة أبي في نيول على البحر. تؤدي بي غزارة الإقامة في هذه القرية ذات الدور البيضاء بدرفاتها الخضر الى عبادتها. اعتقد تماماً أنني شربت ماء المحار في رضاعاتي الاولى. أحب طعم الملح. بحر الظلمات جزء من قبيلتنا العائلية. فلن تزعجني الحياة هناك، قرب أبناء وبنات عمي، وسط رائحة الطمي والبقر، لكن أمي ستضطر الى أعظم تضحية. ستدفع ثمناً باهظاً للحب الذي تكنه لي، بقرارها حجبي عن النظرات النمامة.

أبي أبى الاستسلام لليأس. قال: نكافح الأذى، بل أضاف لم نستنفد معين العلم. لم نأت ساعة اللجوء الى نيول على البحر، علينا الاستمرار في العيش في (رمبوبية)، لكنه سيكثر ذهابنا الى باريز غالباً للعمل على علاجي.

وهكذا بدأ الدوران بين العيادات الطبية: المنطقة السادسة عشرة وفي حديقة مونس، تتشابه جميع غرف الانتظار. حجرات مكتظة، افراط في النباتات، شبه المتحجرة، سجاجيد غليظة، حائلة، أثاث وكسوة مذهبة حدودها، ارائك عرج، تحف غريبة.. الحاصل، يبدو لي كل شيء غريباً، لم أر نظيراً أبداً، لايجرؤ أحد على الكلام أو الحركة. تهمس أمي في أذن أبي:

-كيف يمكن دعوته؟

– من؟

– الطبيب..

يرفض أبي السؤال بهزة من كتفيه. لاتحلف أمي، بيد أن ثبات نظراتها تدل على انها تتابع فكرتها، بينما يغزوها القلق رويداً رويداً. انها قاعدة على

حافة الاريكة. وترص ساقيها الطويلتين أحدهما فوق الأخرى رصاً شديداً، وحقيبة يدها موضوعة على ركبتيها بتوازن. ويتجمع جسما أبوي حسب الانتظار. فنحن أناس منقولون الى زينة كان كل شيء فيها ينتمي الى نظام راسخ: اللوحات في أطرها، الصيني في الجامات. والنوافذ مستورة بسجف غليظة تجعل النهار ليلاً. وأخيراً يجرنا رجل الفن، الساحر، الى مغارته. يفحص فكي فحصاً طويلاً، يجس خدي، يهز رأسه ويقول دون حرص، بلهجة غير مكترثة: «هذه حالة هامة جداً جداً. وقرأ في نظرة أبوي انهما لايشاطرانه حماسته.

وتتكرر الحفلة نفسها كل مرة. هناك، في عام ، كثير وكثير من السحرة، كثير وكثير من غرف الانتظار، كثير وكثير من جلسات الجس حتى كدت أكره هذه الشقق والمتاحف وتكديس الأغراض فيها. اختنق في المذهبات. يتحدثون تحت الزخرف بلسان لا أفقه إلا نتفاً منه. يحدد جهاز معقد ذو ستائر مضاعفة أو مثلثة فراغاً مظلماً معلقاً بين الحياة والموت، بين الجحيم والنعيم. انه برزخ غريب الى الهم البليد.

يضاف ديكور الكلمات الى ديكور الاقامة.

انا خائفة مما سيقع علي، بيد انني أخشى قلق أبوي خاصة نحن ثلاثة علينا الترحال في قاعات، البورجوازية الراقية، الطبية هذه: أبي وأمي وأنا لا أحس بأني مريضة بل اشكو من تعذيب هذين اللذين أحبهما، ينظران الى وكأنهما يخشيان فقداني. هل للساحر القدرة على اخفائي، بضربة عصا؟ اين يصبح المرء عندما لايكون البتة؟

قد لاتتوقف الدورية. بي أن أحد السحرة يقرر. ذات يوم ويده على خدي الشمال: لابد من رؤية مايجري هنا في الداخل. لايعلم أبداً. أود الحصول على قلب مايجري الواضح.. القلب الواضح، القلب الواضح.. أري جيداً أن قلبي أبوي يصعدان الى الحلق. يتجعد وجهاهما. مايزال السَاحر يتكلم. صوته لطيف. يؤيده أبواي برأسيهما. يبدوان أخف حزناً يستشير الساحر دفتراً

ضخماً على مكتبه يقلب صفحاته. ثم يتوقف. يرفع عنيه ويسأل أبوي عما إذا كان الموعد يناسبهما. يقولان نعم. يرافقنا الساحر حتى الباب. نخرج من المغارة. تقول أمي في الطريق، إننا سنركب فوراً حافلة النفق الى الكونكورد. تريد شراء قماش من شارع (رفولي). ستفصل لي خياطة (رمبوية) معطفاً.. ينبغي إنهاؤه قبل ذهابي الى العيادة السريرية.

تصر عجلات العربة اذ يدفعني الرجل ذو القميص الأبيض. يكرر: لن نلبث ان نتنزه ، وسيغدو الطقس صاحياً. أعرف أنه يكذب لكنني لا أجزع من ذلك. أسف فقط لأنني لم أستطع وداع امي. يكاد نعاس طويل يسيطر علي حيث يقودني، ولن أحس شيئاً مما سيفعلون به. هذا ما أكده لي أبي. وأنا واثقة بما يقوله.

ألم يدفع أبي وسواس الحقيقة الى حد رفض تصديق خرافة بابا نويل؟ قال قبل ذلك بعام متعجباً. أمام الموقد الذي كنت وضعت فيه صندلي وخفي مرصوصين مقابل بعضهما لامتصاص وقوع الهدايا: فقاعات.. حكايا بوابين أليس هناك بابا نويل أوبابا ضراب البتة» أبوح بأنني طلبت في ذلك العام، من بابا نويل أخاً صغيراً أو أختاً صغيرة. لايهم الجنس كثيراً. طفل. أريد طفلاً. وعلى حذائي ان يصبحا مهده الاول. وسرعان ما فهمت عندما قال أبي «ليس هناك بابا نويل اوبابا ضراب البتة» ان الأخ الصغير لن يهبط من المدخنة. تألمت، لكنني أحسست أن أبي لن يكذب علي. قال لي أنني لن أحس شيئاً ، فلن أحس شيئاً.

بعد الدهليز الابيض هناك المصعد.. دس سريري في الفرن كما يدس الخباز أرغفته، دهاليز من جديد وصرير العجلات. وأخيراً غرفة. بيضاء دائماً بيضاء. هنا يقوم آخر العالم. وأفهم اني وصلت.

هناك هذا الصمت – ترن كلمات نادرة – وهذه الحركة حولي. تقيدني كائنات، لا أرى غير نظراتها بين الشعر والقناع، هذا يقيد ساقي وذاك ذراعي. فتأخذني الصياح في الصمت. لابين أنهم لايستطيعون اخضاعي لكل مايدور في

رؤوسهم. وعدني أبي بالا أحس شيئاً. ليست هذه هي الحال الآن. فهل بكروا، أكثر من اللازم في الشروع في التعذيب، اهمالاً أو استعجالاً؟ عليهم أولا تركي أفقد الوعي. فقدان الوعي، تعبير أعرفه جيداً. عندما ألعب مع جدتي وتسهو بضع دقائق بين تبديلين، تقول لي ولا تفتح عينها. كأنها تعتذر عن قطع اللعب: «لاشيء، فقدت وعي توا».

اسكت فجأة، عاجزة عن اصدار اي احتجاج على ماينزل بي. لاصيحة. لانفس. لصق بوجهي، بأنفي، بمنخري شيء متجمد تنتشر رائحته الرهيبة في. اختنق. تتزايد قوة التصاق الشيء البارد كريه الرائحة. هل بزغ من أعماق البحار وحش - طحلبي اللون، ذو ألف ذراع اسفنجية - ليفترسني بقبله؟ اسعى الى التنفس. يستغل الوحش نفضاتي ليعمق توغله في.

أماه لمَ لمْ تودعيني قبل ذهابي؟ لأنني أعتقد جازمة انني مغادرتك. ماذا لو لم أعد؟ ولو تركتك الى الأبد؟ لماذا لاتتنزه شفتاك على خدي؟ لم هذا العناق النجس بدل عطرك اللطيف. اللطيف والحنون كثيراً؟ لماذا لاتعينيني، يا أبي على طرد الوحش، أنت الذي غالباً ما صنعت لي أقواساً وشصوصاً؟

ما أطول هذا كله.. لابد من انهائه. اذا كتب علي الرحيل، اذا كتب ألا أراكما البته. اسرعا اتدلى فوق حافة البئر. تدوم نجوم في قاع البئر. يالها من رقصة صاخبة.. آلاف النقاط الضوئية تلعب (العسكر والحرامية) أود أن لا أدع، الثقب الأسود، يشهقني ، انا القزمة البيضاء لكنني اتشبث بالحياة بما بقي لي من قوة. لا أريد ان أموت. أغوص أخيراً، متقلصة الحلق، ورأسي يسبقني، نحو الكهف. تتألق النجوم. تزداد سرعة دورانها. يكاد فمي ينفتح أهم بازدراد النجوم كلها دفعة واحدة.

استيقاظ طويل. سديم وهذيان. يترك أثر، التخدير السابق. أثره في جسمي وفي رأسي. أحلام وكوابيس. تجولت طويلاً بالفرس الدهماء. فوضى في الكلام. ولاسيما تلك الرائحة الخانقة الكريهة التي لن تزيلها حيوات كثيرة. حفظ الذين مروا هنا في عمق مناخيرهم ذكرى هذه الرائحة التي تجعلهم يتحرون

بثقة أضعف شبهة بالأثير. وليس له ان يفلت منهم، مثل المخدر في شتى درجات تحوله لا يخدع حرص كلب مروض على التعرف إليه.

ومن ثم هناك البرد. عبرت قدراً من الجموديات وقدراً. عدت الى البلد، الذي لايحس شيئاً، بانطباع البرد الذي مايزال يمتلكني. وسيمتلكني دائماً.

سوف أقرأ كتاب (جاك لندن)، في مرحلة روايات المغامرات. فانزلق على مسارح السكة كأنني في بلد أعرفه. وأغدو جزأ من قطيع كلاب الصيد في العزلة الشمالية الفسيحة، وأنا مقرونة الى الزحافة مع صديقي كروك الأبيض وبك، مع كل الكلاب الضخمة ذوات الفرو المتألق بالجليد.

ولا أعتم اتخيل الصحراء، بامتدادها وقيظها، وذلك قبل أن أعرفها، أسعي للشفاء من البرد. سوف ينقلني كتابي الأول (أهل رسر)، دون أن أقدر في ذلك الحين على القول لماذا، الى جنوب جاف أجهل كل شيء فيه. أجيب دون تردد، أنا البريدة، المزمنة على سؤال (بروست): ماهي الطامة الكبرى عندك؟ البرد. لاشيء ولا أحد يشفيني شفاء تاماً من هذا البرد المتأصل.

ففي كل مرة يتحتم فيها علي خلال حياتي اجتياز طاولة العمليات– وسوف يجر لي هذا غالبا – لا أطلب من اولئك الذين عليهم الاشتراك في ايقاظي الا شيئاً واحداً: تغطيني أحر غطاء ممكن لتيسير عودتي الى الارض.

يغزوني البرد برمتي عند اليقظة وينفض الساقين، الفخذين، نفضات عصبية لضفدع يجتازه تيار كهربائي. ولكن لاقيمة أخيراً لفوضى الجسد والروح امام هذا لاكتشاف الفريد، هذا الكشف الصاعق. هذه البداهة المحيرة غير المنتظر: انا حية.

ماذا يهم الفزع هذاالبرد الذي لايقهر وثقل رأسي وأطرافي.. أنا حية.. وكل نبضة دم في عروقي، كل نفس هواء في حنجرتي يكرر لي أنني حية.. من الألم ذاته ومن العجز، الذي أجد فيه نفسي، عن فتح عيني على العالم على الآخرين، استنتج هذه الحقيقة الثمينة بين غيرها: أنا حية. ليست السعادة أو السرور أو العزاء. هو شيء يعيد به السحر الى جسم اصابه الأذى بعض الوقت

وحدته دفعة واحدة، وإذا وجب تسميته، فسوف ادعوه فيما بعد بالبركة. بركة البدايات.

أنا حية لا أتسآل عن الحال التي أنا عليها، فيما اذا كنت شفيت، عما عاد الأمل الى نظرة أبوي، وهل سأكف عن كوني شخصاً مختلفاً عن الآخرين. ليست بنية في الخامسة. لست جسداً. لست فكا خاضعاً لظواهر لاتراقب، أنا حية.

اندس في سريري الغليظ مثل حصاة على شاطىء (نيول على البحر) المشمس. ثم، أصبح خفيفة، دفعة واحدة. ليس لي وزن قط. اسمع عن كثب جسمي الذي تجرمه أيد غريبة. لا أشعر بألم أو قلق أو رغبة. أنا وحيدة مع نفسي. لا أرى، لا أسمع غير هذه الحياة التي أمزج بها أعود تارة الى النعاس وأثقل الى مالا نهاية. وانهض تارة فإذا بين طيارة مثل التنهيدة الأولى. هذا ضرب من التنفس. ذهاب وإياب من الأثقل الى الأخف.

ها أنه يقرب من شفتي كأس ماء. يمسك رأسي. لا أدري من يتحرك. تتسلسل الحركات البطيئة تسلسلاً سعيداً. قربي حضور. ليس له اسم، لكنه يريد بي خيراً، هذا كل ما أعلم يرطب شفتي. هذا منعش ولطيف. يمسح الماء فمي الذي يتقدم نحو الكأس. يهدأ اندفاعي. ياله من شره مفاجىء.. كنت قبل أقل من ثانية لا أعرف العطش. ولست الآن غير ميزاب يتثاءب فمه الممتل به جشعاً.

ليس العالم غير كأس ماء ليس غير شفافية ولطف. في كل جسم حديث، منظر جديد. لن ألبث ان أدفع الحدود. لن ألبث، في التوسع، أن اكتشف ابتسامتي أبوي التوأمين والعاطفتين والنور، والبياض، والضباب الذي يرتفع كي تظهر آفاق اخرى وراء الجدران الملكوكة. وقد منحت الحياة فوق ذلك. أشعر أنني نجوت من خطر جسيم أعجز عن تسميته، احتاج الى أعوام لتسميته الموت والتعرف على سمته في أعماقي. تجعلني ألفته المبكرة توازنية تشده كل يوم لأنها ماتزال في هذا العالم، شرهة تلتهم الخبيث والطيب منهم لانظير له.

فهمت منذ وقت قريب ان للفودكا التي أولع بها الرائحة الطيبة لصباح النقاهة في المستشفى. باردة وحارقة، انها شفرة تشق طريقها من فتحة الفم حتى البطن. تنشوي الحياة، على آثارها تقول أمي: تبرئين بسرعة تطير العقل.

يفتنني كل مايذكرني بالمستشفى والعيادة السريرية من قريب أو بعيد، حتى قبل ادراك صلاته السخفية بما عرفته في طفولتي. فأحب عري الجدران البيض. يستطيع الخيال نقش، أحلامه ورغباته وشراده، عليه يلهو فكري بالليلك الأبيض على افريز الحائط.

غالباً مايكتشف الأطفال الموت في فقدان قريب. وتميزت بالقيام بتجربة شخصية عنه. عدت ناحية منه وعرضة على نحو غريب. عرضة على النحو الذي يقال في البردج عن فريق يخشى، بعد ربحه الدور الأول، مضاعفة الجزاء.

منزل (رمبويه) مثل الحلوى. تعتلي طبقاته بعضها بعضاً ولكل طابق طعمه الخاص. واسخف ذوق في الكهف حيث يختفي أبي ساعات برمتها. وتقول أمي أنه يقوم بتجارب. وعندما يصعد، تسأله كل مرة اذا أحكم إغلاق الباب. وقد تضيف بلهجة قلقة: «أنت لاترعي ان هذا أخطر عليها. اعلم ان «ها» هي أنا، لكنني أجهل مايجري في الكهف.

امنع من الاقتراب منه في الأوقات العادية ومن عجب انني أساق إليه أحياناً بالقوة. فتضمني ذراعا أبي أو أمي فجأة، في غمرة لهوي أو نومي. وتلفني أيديهما في غطاء وينقلاني الى الكهف كرزمة. وننتظر هناك ساعات حتى ينقطع هزيم أرض مزلزلة وسماء ممزقة.

كنت قابعة، ذات يوم، بهدوء في المطبخ، ورأسي مقابل الزجاج. أرى شيئاً ثقيلاً يسقط من السماء. ومهما كررت أجد الوقت للتفكير في أن الشيء سيحط من السماء. بقليل من الحظ، أمام النافذة تماماً في وسط الحديقة الفسيح، حتى هتف أبي: انذار، الى القبو سريعاً. وامسكني طيراناً، محصورة بين قامته وذراعه. وهكذا غصت برأسي أولا في ظلام القبو. لذا قرر أبواي بعد ذلك بوقت قصير وضع سريري في الطابق الارضي. ليتيسر لهما أخذي الى

الممر ليلا. قالا: نحن في مرقب، بسبب قرب خطوط السكك الحديدية المؤدية الى باريز.

أيقظتني ذات ليلة أصوات غريبة، وأنا نائمة في غرفة الطعام. ولم تكن صافرات الانذار أو القصف الذي تعودته، بل ضجة أدوم، أعظم، أضخم، ذكرتني بتململ الماء العظيم على شاطىء (نيول على البحر). نهضت، ومشيت على أرض الغرفة حافية رغم أن أمي نهتني عن ذلك. انزلقت خلف الستائر ولاحظت في الظلام موكباً لاينتهي. وتبنيت، شيئاً فشيئاً. أشخاصاً، عربات، دراجات نارية، شاحنات وعددا مجهولة. وكل هذا بلون واحد يلفه الليل. كل هذا الذي يتقدم وئيداً، ثقيلاً. تمر صناديق الشاحنات على ارتفاع نافذتي. وهي محملة فوق طاقتها ولا تفلح الشوادر التي تغطيها في اخفاء محتواها دائماً. فأرى تارة ظهور ساق، قدم وحذائها الثقيل،، وتارة يدا ذات أصابع منفرجة واهية. ويتململ كل هذا، تحت الشادر في فوضى كأنه كعكة خارجة من الفرن. والشاحنات تعقب الشاحنات في هدير محركاتها الضخم. تدير العجلات جنازيرها حول نفسها بصوت ممتص، بردت قدماي، حتى أنني ارتعشت طويلاً. بعد عودتي الى سريري. قال ابواي صباح الغد. أن الالمان ينسحبون وقد حملوا في تلك الليلة قتلاهم.

لكن في الطابق الارضي، مأساة يومية توقع حياتنا ايقاعاً أقوى كثيراً من الحرب والسلم. تفتح أمي كل صباح مصاريع المطبخ والنوافذ. فتأتي نفحة عليلة من المطبخ تمنح هذا الطابق برمته طعمه الواخز القوي، وزنخ رطوبته. وعندئذ تريم أمي عن اطلاق صرخة قوية. الصرخة نفسها، الفجاءة نفسها كل صباح. استغلت الحديقة الليل كي ترسل مبعوثها: حلزون ضخم. انه هناك وسط المطبخ تماماً أحمر قان، بدين جداً لحيم جداً. وتركب أمي كل صباح، المركب الصعب أمام الحيوان المسكين اللزج كما يتغنى المرء. لابد من دفع العدو. كل صباح خارج الجدران. يقول أبي الذي يحب الريف لامي التي لاتحبه، كل مرة «هناك مصائب اعظم».

غرفتي في الطابق الاول وأنام فيها عندما ينقطع القصف. والطبقة العليا هي احلى مافي المنزل الحلوى. وعندما تعد أمي نفسها تغني في الحمام (اجمل تانغو في العالم) وتأتي من الباب الذي تتركه مفتوحاً، رائحة المسحوق والجلد الروسي الرائحة التي أنستني رائحة الاثير الكريهة. لم اشف بيد أن ابوي يبدوان أقل قلقاً. هل تعودا حالي؟ هل حمل إليهما، الجراح الذي رأى عن كثب مايحتوي خدي، أخباراً مطمئنة؟ أخمن من نظرة أمي أن وجهي لايرضيها، لكنها لم تعد تتحدث قط عن عزمها على العيش في (نيول على البحر) اذا شوهت. لعلها تتعود على بلواي، التي يطلق عليها أبي اسما. هذه الظاهرة الغريبة، التي تردد الأطباء أنفسهم في تسميتها، عمدها هو «جوبيا» ولابد لي من كتابة «جو -بيس»(١) لانه نحت هذه الكلمة على هيئة كلمة مركبة. فالأمر بالنتيجة امر خد اضافي. أليس هناك خرفان بخمس قوائم؟ وأنا لي جوبي. يسألني: «كيف حال جوبيك؟» ويلاحظ كأنه يطمئن: «جوبيك لايتضخم قط في هذه الفترة» هناك ضرب من التكرار يحمل على الظن بأن ماهو أعظم سوف يزال.

وضع أبواي شراغف عند رأس سريري. انها نفيسة أليست من البركة البهية؟ رأت النور في حرم قصر رمبوية نفسه. أتابع ساعات، رياضتها في الحوض الزجاجي. أهوى تحولها لكنه ينقطع انقطاعاً مفزعاً عندما تولد قوائمها الامامية. فما يوشك الشرغف ان يمسي ضفدعاً حتى يموت بغتة فيفرغ القدر مأوى أصدقائي في اسبوعين. ولايتعسني هذا الحداد المتكرر غير بعض الوقت، لأنه يسمح لي أخيراً بالنهوض.

ليست في البدء غير خطوات خجول نحو الشرفة الخشبية الصغيرة. ورغبتي أقوى من جسدي وتحملني ساقاي بصعوبة فلابد لي من استعادة توازني في وضع الانتصاب والتوفيق بين حركاتي فمن سرير الى سرير فقدت عادة المشي ذاتها. يلزم للمرء ان يتعلم كل شيء من جديد يحب الحياة الى هذه

---

(١) خد: مرة ثانية باللاتينية

الدرجة. ثم يلوح إلي ولوج الشرفة فاذهب اليها للمرة الأولى. وكان أبواي يمنعاني، حتى ذلك الحين، من الذهاب اليها . فيزعمان ان خشبها منخور كثيراً. وحصلت على الأذن، بعد كفاح شاق. ويصويني صوتا أبي وأمي بالانتباه وعدم الاتكاء على الحاجز، فهو أوهن من بقية البناء.. البناء. أكاد أحس بدوار. فتخونني ساقاي تحتي، وتنقلني ذبذبة لطيفة جداً بين الأمام والوراء تخذلني أطرافي ثم تتماسك لتخذلتني من جديد. افقد صوابي. وترف عيناي في بزوغ، النور المفاجيء. يسكرني الهواء، الهواء الحي، الطلق، المنعش وافتح منخري لاستزيد منه. وعن بعد، صوتا أبوي، ضرب من التشويش. أنا وحيدة والعالم يتسرب الي كل من مسامي. مختلة التوازن، مبهورة، سكرى، أعانق الحياة من الشرفة.

وماتت كل الحراشف لأغدو ضفدعاً. لم تكن شهود الاحتضار، السقوط اثر السقوط، الالام والملل غير تحول عسير نجحت قائمتاي الاماميتان أخيراً في البزوغ. أنا تامة. أحيا. سوف أحيا. خرجت من الماء المستنقع وحوض الماء الراكد ومن نتن المرض. رأسي في الشمس. وقدماي وساقاي تتجلد. عادت عيناي لاترفان. تحد قان في النور. اطوي جسمي. ألم جلدي. ثم لا أستطيع احتواء نزوتي. أنا جائعة. لم أجع منذ قرون. بل لعلي لم أشعر أبداً بنداء خواء معدتي الذي يجعل بطني أوسع من عيني.

تحتي، هناك المر المنحني المحصور بين صفين من السوس والهرجاء. سوف انزل إليه، في الأيام القادمة، تنقلني دراجتي. تندف الخطيمة ويفرز الزيبق اصرخ الاصبغة. والواقع أنني لا أعرف اسماء هذه الأزهار ولا أهتم بتعلمها.العالم طازج. لايجوز تسميته. فهو يجري في طرفاته. يشكل جملة لا أبصر تفاصيلها بل اشعاعها. فالازرق منه يعض الأحمر والأحمر الأصفر، والاصفر الأخضر ويلتهم الأخضر أخضر صارخ ، خام، كل الباقي في انتشاره. تترسب الألوان الى بعضها، ويبدو لي اني أراها أول مرة.

دهشتي أعظم في بستان البقول. لاشك أنه كان لابد لي من انتصار

الغد لتفويضي التجول فيه. انا قزمة تعبر غابة. كم نما كل شيء في غيابي. هذه المطارح التي كنت أظنها مألوفة لاتمت بشيء الى تلك التي عرفتها سابقاً. أية قدرة يملكها أبي ليقدم لابنته الناقهة هذه الهدية الرائعة؟ أعرف قدرته في الأصل من كل ما اكتشفه ويرسخ هذا اليقين سعادتي.

الذرة العالية والمكتظة، بحيث أستطيع الاختفاء بينها اختفاء تاماً. انها هو، اليقطينات الضخام، المنتفخات ، المحززات، المشبعات بالنسغ والشمس، انها هو. العرائش الجاهزة لاثمار كثمرها الماوي والرخص، الكمثري الكوشيه المقدسة، لاريب في انها هو.. هو الخالق وأنا أتسلل الى ملكوته.

ولم نلبث ربما بعد شهر، ان تستعيدنا حياتنا الطبيعة. وأنت ياأبي سوف تصنع لي قوساً جديداً من غصن الليلك او البيلسان. سوف ندعو الجيران الصغار ونلعب الهجوم على الحصن. سوف ندفع . أنت وأنا، المهاجمين برشهم بالماء وسوف نقول انه زيت مغلي، سوف يحكم على الخاسرين بالسخرة. ينبغي ان يقطفوا توت الأرض الذي سوف نأكله جميعاً متخذين أكبر يقطينة مائدة. تقوم السعادة في جنة، في مفترق الحياة والجمال. انا مدينة لهذا البعث، الذي يتفق اتفاقاً تاماً مع بعث الطبيعة في فهمه فهما حسناً قبل أن تستطيع الأديان تعليمي اياه. عشت في رمبوية، في جنات الله. سوف أجمع فيما بعد، نشرات البستنة، حالمة بالبساتين الخيالية، وسوف أحب دندنة الأغنية القديمة:

يزهر الليلك، في جنات أبي،
يزهر الليلك في جنات أبي
ويهم الحجل واليمام بالتعشيش فيها.
ما أنعم الحال قرب شقرائي،
ما أنعم الحال ، ما أنعم الحال،
ما أنعم النوم
قرب شقرائي.

كانت، جنات أبي، جميلة. سوف تؤكد لي رحلاتي، فيما بعد، هذه الحقيقة

الأولى: الفردوس حديقة كل الحضارات تقول ذلك بطريقتها . يرتل هذا في أروقة الأديرة، وتخربه النافورة المركزية في حديقة الدور الاسلامية المغلقة، وتنذر اليابان للصمت الحكمة الكونية من حدائق (الظن) فيها . وماكان الشعر والموسيقا ورسم السجاد، في (فارس)، لو لم يولد من حب الحدائق.

يصل جد أمي الى (رمبوية) ومعه دجاجة حية في سلته. كلما اقترب المرء من باريز كلما جاع في أوقات الحرب هذه ،فحري به القدوم مع زاده. ولاريب في انه يجهل اننا في هذا البيت لانحب أكل الحيوانات التي عرفناها حية.

أقام أبي حجراً كبيراً للارانب في الحديقة وأخذنا نتعلق بأرانبنا شيئاً فشيئاً وإذا كنا نغذيها من قلبنا فإنها لاتغذينا قط. نذهب الى الحقول القريبة جداً نجمع لها عشباً . والواقع أننا نجد فيها ظروف طلقات أكثر. من براعم الوقيسة والصعتر البري. وقرر أبي، ذات يوم، رغم ذلك، التضحية بفريدي، أضخم نزلائنا . وطهت أمي على مضض، لحمة برد في الصلصة. لم يشأ أحد أكل (فريدي) على أية حال، لم يمت سدى. اذا أمضى رفاقه في الأسر - بفضله - أياما سعيدة في الحديقة ولقوا حتفهم بالشيخوخة. كتب على جد أمي قصم عنق دجاجته بنفسه. غير أنه لابد من الاعتراف بأننا أكلناها بشهية. وأظن انه لم يتح لنا الوقت، في حياتها لتقدير مواهبها .

يؤثر شارباً جدا أمي الطويلان في نفسي،فهما أبيض من فرو (فريدي) التعيس. وله كذلك صوت لطيف جداً في جسمه الضخم. وباحت لي أمي بأن الغضب يستطيع تضخيم صوته كالسيل الهادر. عليه قضاء شهر في بيتنا وسرعان ماوددت اطلاعه على معرفتي: يعلمني أبي القراءة وفهمت من ضيقه انه أقل مني معرفه بها. فقرر أبي تعليمنا القراءة معا . رفض جد أمي أول الأمر، زاعماً انه تدبر أمره دون القراءة حتى الآن. لكنني تشبثت بكمه تشبثاً قوياً حتى انه قبل الدخول في اللعبة. ولم ألبث أن ندمت على ذلك. فلا بد من أن يعيد عليه الاشياء نفسها بلا نهاية ثم يخطيء ايضاً، لأبي صبر ايوب. ويشرح لي أبي، مهدئاً استعجالي، ان دماغاً في الثمانين، بطبيعته، ابطأ من دماغ في الخامسة مثل دماغي.

عندما يغيب أبي، أصبح بدوري استاذة، فافرض، وأنا منتصبة أمام اللوح الأسود، الحكك بيد والمسطرة بالاخرى، معرفتي الناشذة على السيد العجوز الذي ينصاع. وما أن يتردد في فك رموز كلمة حتى أصوبه وأعنفه وأهزه. يداعب شاربيه العتيدين، بتسامح. جسمه قوي، ظهره مستقيم تماماً رغم السن. يستطيع سحقي بركلة. يمسك عن ذلك يشكو امي أحياناً، خبثي. انا سيدة الكلمات وأريد فرض قانونها. أسيء فهم عدم المشاطرة في النهم الذي تولده في. ولا أغفر لجد أمي الا يقترب إلا في نهاية الحياة، ويتحفظ ايضاً. يجرؤ على ابطاء تقدمي واعاني النقص الان.

سوف يرحل جد أمي عاجلاً وسوف تستمد الكلمات في السريان في. تولد طبيعياً تماماً من الحوار مع أبي. يعرف كيف يحرض فضولي ويرضيه كل مرة. اذا ولدت القراءة من الحب. اذا بزغت من اللعب، اذا لبى أبي رغبتي كما يجب وحين يجب، اذا أصبحت الكلمات فوراً علاج وحدتي، فانني لن أستطيع أبداً وفاءه حقه من العرفان بالجميل. الأخذ عن الانسان الذي نحب، عن أول الجميع، هذا الحاضر المعجز بركة تمتد آثارها مدى الحياة. ماذا كنت لولا الكتب التي قرأتها؟ لولا الكتب التي كتبتها؟ أليست اولاد أبي، أولادي ايضاً؟

وكففت. أنا الولد الوحيد، مذ تعلمت القراءة، عن الالحاح في تمني آخ صغير أو أخت صغيرة. وتعتمت الصورة التي حلمت بها لهذين الرفيقين مذ قلبت صفحات كتبي الاول. فتح العالم، فسيحاً وصنعت لنفسي، دون ان أدري، حبساً آخر، واسعاً مثل حبي للاطلاع. أول كتاب أقرأه من أوله الى آخره هو حكاية روسية قديمة: السمكة الذهبية الصغيرة. جلب لي أبواي من باريز المجموعة الحمراء الجميلة. وسوف تتبعها كثيرات أخر، لأني لا أعرف جواباً على السؤال الطقسي: ماذا تودين؟ إلا: كتاباً. بيد أن الأول ترك في أثراً دائماً. لم ينفك أبي أبداً على مدي طفولتي، بل وأثناء مراهقتي، عن تذكيري بمغزى الكتاب الاول..

كان ياماكان عجوز يحب الصيد. اصطاد، ذات يوم، في شباكه سمكة

صغيرة جداً، لكن هذه السمكة كانت من الذهب وتتكلم. توسلت الى الصياد كي يعيدها الى النهر ووعدته بتلبية احدى أمانيه على سبيل الشكر. وكان الصياد، على فقره، قد رضي بقدره. فلم يطلب من السمكة أية فدية وجرى الى امرأته يحكي لها المغامرة العجيبة. عدته العجوز غبياً وما لبثت ان ردته الى النهر كي يطلب من السمكه الذهبية الصغيرة ان تهبه مزوداً جديداً. لبيت أمنيته لكن امرأة الصياد لم ترض بهذا القليل. فما لبثت أن أرادت عزبة ثم السلطة، فالغنى، ثم بلاط القياصرة، وأخيراً، طلبت مملكة البحار. كانت العجوز لاتروى ومن مائها لاتشبع، شأنها شأن حواء. أليست النساء كذلك بطبيعتهن في الحكايا القديمة المعادية للمرأة وفي التوراة؟ ينبغي لهاكل شيء وفوراً. غضبت السمكه الذهبية الصغيرة، ذات يوم، واستعادت دفعة واحدة كل ما أعطته بسخاء. وألفت العجوز نفسها وقد عادت مملقة كما كانت من قبل، مع كوخها الحقير ومزودها المتصدع.

كم مرة سوف أسمع أبي يطالبني بهذه الكلمات: «تذكري السمكة الذهبية الصغيرة» سوف ينفرني هذا من الحكاية الروسية القديمة وأخلاق الخنوع.

أتغذى من كل ما أجده: الكتب، الكلام، العطور. الألوان. انتفخ امتص. أحفظ يجب الاجابة على اسئلتي دون انقطاع. لايكل أبي أبداً. لكنه يحب قلعة اللعبة، فيسألني بدوره، كي يحقق معلوماتي، ونحن نتآزر بنكش أعشاب، الحديقة، الاكيلة. عاصمة رومانية؟ البيرو؟ ارلندة؟ أحب أن أحببه دون رفع رأسي عن عملي، كأن كل هذا سهل. والواقع أنني كنت اجتهد كي أسره. فأعتقد أن ذلك هو ثمن حبه. وانكش نبتات الأعشاب الصغيرة بضربة. ذلك آن منكاشي يسلخها في مروره. أنا مشتتة بين هذه البلاد التي ينثر أبي أسماؤها في لعبتنا كيفما اتفق.

ابدى، الى حد ما، نهما أشد من نهم الطفل ٠(كدم)[١]. هكذا لقب في

(١) اسم عالم، والمقصود السخرية من الرجل الضخم باعتباره طفلا (المترجم)

(نيول على البحر) السيد الضخم الذي وزنه جاذبية حق. لابد من رصف ثلاثة كراس الى جانب بعضها حتى يتاح له القعود. والويل للقط الذي يقبع يوما عن قلة انتباه على الكرسي الاوسط.. اذا يهوى (الطفل كدم) دون أن يراه، بكل ثقله حسب عادته. ويقول بعد لحظة: هذا سخيف، انني بلبل. ويعان الشحيم على النهوض، بعد أن يصبح ردفا القط كالبسكوت. وتسري جميع ضروب الحكايا عن مقادير اللحم التي يبلعها كل يوم .بيد أن نهمي،كما يبدو لي أضأل بقليل.

ومن البديهي، في هذا السياق ان معلوماتي أوسع من معلومات الاطفال في عمري. ولا أدين بها الى مواهب خاصة، بل الى الطريقة التي يتخذها أبي في تعليمي.

ويقرر، بين نمو جوبي، ونمو تسجيلي في المدرسة، ان وجود ابنة وحيدة اخيراً بين أطفال آخرين، هو انتماء.

أصحب أمي الى المديرة. تربت السيدة الضخمة على خدي دون مراعاة انها تضع يدها علي أو هي موضع في شخصي. تقرر لاول وهلة ان علي حسب عمري دخول الحضانة. ليتها لم تقل ذلك. فلابد من رؤية أمي تأبى الاهانة. الحضانة لعبقريتها الناشئة، انتم لاتعرفونها، ياسيدتي.. انها تعرف القراءة والكتابة، وادع لك الباقي لمجرد التواضع. ولم تعترف المديرة بانها غلبت. بل جرؤت على الزعم بأن جميع الامهات يؤمن بعبقرية وتقدم براعمهن. تجيب أمي بثقة باسمة: «تستطيعون امتحانها». وسرعان ماتحزم الاخرى، التي لاتقل عنها ثقة، أمرها وتأخذ كتاباً صادفته على رف خزانة. غلافه أخضر. أنه لون الكتب في تلك المرحلة. وسوف أحب، بعد ثلاثة سنوات. المجموعة ذات اللون نفسه. بحماسة، وتصبح ذروة الغنى، الحلم الذي لايتحقق، حيازة كل مجلداتها.

تفتح المديرة الكتاب. الآن، وتزيح صفحاته بعناية، وتمده الي. لاتعتريني الرهبة. أغفل عن أهمية المقامرة. ثم أن القراءة عندي متعة، ولم يغير حضور السيدة الضخمة شيئاً من ذلك. انه كتاب طهو. أقرأ الوصفة بيسر، دون فهم حدودها التقنية. أمي مع الملائكة. وتلمس ابنتها الفردوس. إذ تراها سعيدة.

إنها اعادة الأشياء حقاً. فلابد من إرضائها بعد المذلة التي أصابها بها جوبي. تعترف المديرة بدهشتها. وتصر أمي، على رفقتها، على أن أعطي ورقة وقلما. تعتمد على الكتاب لتكفل نصري المبين ونصرها. لكن الاخرى، التي اعتنقت فجأة قضيتنا، لا تطلب اي برهان. تصدق كلامنا. سوف ادخل المدرسة الكبيرة رأساً، بل الصف الثاني. نرقص في طريق العودة، مثل الماعز، في ظل أشجار الكستناء.

عددت الأيام. حياتي معلقة في انتظار الحدث الكبير. تأتي أخيراً الليلة الأخيرة. لا أريد فقدان شيء منها. تراخى نفاذ صبري فجأة أمام هذا اليقين: غداً اذهب الى المدرسة. منعني هيجان فرح من النوم.

جاء أبواي يقبلاني، تمنيا لي ليلة سعيدة. واجبتهما كما لو لم يكن شيء.، أليست، في الظاهر، ليلة شبيهة بغيرها في كل النقاط؟ وسمعتهما مايزالان يروحان ويعودان في البيت زمناً. ثم تصمت ضجة خطاهما في الدهليز وعلى السلم مع ضجة حديثهما. رأيت اختفاء شق النور تحت باب غرفتي. فهمت عندئذ أنني أصبحت وحدي كما لم أكن أبداً. وبدل أن يفزعني هذا الانطباع، جعلني أشد احساساً بحرارة الاغطية ونعومة الشراشف. استعد للرحيل في سفينة مريحة سوف أعبر الليل لارسو غدا على عالم جديد لاسعى حقاً الى تصوره. المجهول تنشيني بداهة المجهول. سيكون هناك الآخرون. سأكون بين الاخرين. ستكون هناك كتب. رائحة الكتب. قل، لم فقدت الكتب رائحتها ذات يوم؟ كانت رائحتها طيبة في ذلك الوقت.

أرى الليل ينتفخ، من عمق سريري. وبقدرما أنا صغيرة في فجوة شراشفي، بقدر ما هو واسع، قياساً الى رغبة لاتعاني كبتها طالما أنني أرجو أن ترضيها الأيام والشهور والسنوات القادمة. أعلم أن المعلومات سوف تسكب في قطرة قطرة. وستصبح متعتي في امتصاصها.

أسهر. رجل يمشي في الطريق. دوي أصوات من بعيد. ثم لاشيء. لاشيء غير نشيد الليل الذي أتعلم موضوعاته. عصف الريح. الغاب الذي يعمل

في العمق. طقطقة المنزل. انين نوابض سريري. بطؤ كل شيء، لكن في هذا البطء شيئاً من الحدة التي سوف أجدها زمناً طويلاً. في وقت طويل فيما بعد حول (تتككة)، على (التبلنو) هذا حيث تجعل ندرة موبد الحموضة كل حركة ،نقى وأصـ ـب في الوقت نفسه. تثقل الأطراف ويتأجج الاحساس ويطور الجسم، في دوار الارتفاع كما في دوار الأرق، هوائيات تلتقط ماتلاحظه الحياة العادية. تتنضد الكلمات، في الصمت على هيئة جديدة، تتدفق المعاني حية، ملونة غير متوقعة. مامن كابح. ترقدني التعاسة، توقظني السعادة. وبهذه الليالي دون نوم تنقلني الفرس الدهماء الى أبعد مكان. لان خببها شديد.

وحيدة. أنا وحيدة وأتمتع بهذه الوحدة. أتكور، أتجمع، أتهيأ للقاء الآخرين. لاينتظرون غيري. أنا فريدة في تلك اللحظة هناك، وانضج قوتي، في هذه الطمأنينة. سوف أنزو في الصباح نحو أولئك الذين لايوجدون إلا لاستقبالي.

وهكذا بكرت كثيراً في تجربة هذه الليالي الأكثر جمالا من أن أدع النوم يحفر لنفسه مطرحاً فيها. لابد من تمديد الساعات وألا ينتهي أبداً انتظارها وأملها ولذتها. ويزداد صور المرء أيضاً بمعرفة انه يسهر بينما ينام الآخرون.

أيتها المرآة، يا مرآتي الجميلة، قولي لي من هو الأحلى في هذه المملكة؟ قرأت (الثلجة البيضاء). تفزعني الساحرة وأقلب سريعاً الصفحات التي تكشر فيها. اهزأ كثيراً من الجمال وهم أمي به عندما تزرعني أمام الخزانة ذات المرآة في غرفتها لتحاول تسريحات لي. انقص جوبي اهتمامي بمظهري. لا أدري ما أشبه، ولا أريد معرفته. ولكن الحياة، الحياة أعرف. لاشك أنني استخدم الكلمة، بل انها ليست في رأسي. لابد لاستحضار الحياة من وعي التقدم الذي يصنعه الموت في ذاته. لكني أشعر بها. فهي التي تعطيني حب الاطلاع والشغف والظمأ.

هل عرفتها في تلك الليالي البيض.. لا أتكلم على الليالي المعاشة في

لذات الانتظار الليالي التي أنا فيها متربصة للفرح القادم. لا أتكلم على ليالي العصبية او القلق أو الصداع، على الليالي السود. لا أتكلم إلا على الليالي البيض. على الليالي التي يضيئها أمل مايزال غامضاً على الليالي التي يرتعد فيها هيجان بدء الرحلة. على الليالي التي تجمع قواها لتدفع الى الصباح مصاريع اخرى، حواجز اخرى، ولترجع دائماً حدود مملكته بعيداً. من قاع ليالي البيض انتظرت رجلاً. انتظرت الحب. انتظرت نظرة، جنساً عبق جسد. انتظرت الصباح ببساطة مطمئنة الى أنني ألفيه مشعاً. انتظرت ولادة كتاب. انتظرت مكتشفات لايمكن تصورها انتظرت كشف ما لم اكن ارتاب فيه. استشكاف جسد واستشكاف معرفة ذو الطبيعة نفسها. لاتهجع تلك المتعتان.

اكتشفت، في المدرسة البنات الصغيرات وهن يعجبني. تدفعني، الغريزة القبلية، الى الانضمام إليهن. بيد أن استجواب المعلمة يقطع اندفاعي منذ اليوم الأول. من منكن يغسلن وجوههن وحدهن؟ يرفعن كلهن أيديهن عداي. اولئك اللواتي يتمشطن وحدهن؟ كلهن، عداي. اولئك اللواتي يلبسن وحدهن؟ كلهن عداي. يشدد كل سؤال جديد عزلتي. لم تخطر لي فكرة الغش للاتفاق مع النموذج. مازلت أجهل الكذب.

وعندما نرادف، فأما طولي ينقص بمقدار رأس من أقصر بنت. اذا كنت أفهم مايقال أو أكاد، فإنني لا أعرف شيئاً من قواعد الجماعة بينما لجاراتي الآن ممارسة قديمة للحياة المدرسية. يعرفن رفع اليد وأن لاتتعرضن للملاحقة. إنهن في السابعة أو الثامنة من العمر. ولم أبلغ السادسة. لمعظمهن أخوة وأخوات .وأنا طفلة وحيدة. هن بنات صغيرات. وأنا طفلة صغيرة. تنتظر أمي، كل يوم، عبقريتها الصغيرة أمام الشبك. تراها، بعد الانصراف، قادمة خجول الهيئة، متخبطة المشية. تتقدم بساقين صلبتين ومنفرجتين، خافضة الانف. وإنما يـ ـدمها الطريقة التي تتحرك بها بغتة. إذ تراها، بدل الاسراع الى ذراعيها كما تعودت. تصبغ خديها حمرة ومريبة تخمن عندئذ ان عبقريتها الصغيرة قضتها بكل بساطة في سروالها وأنها مرتبكة جداً بذلك. من هذه المشية. من هذا التشويش. فلا توسع خطواتها.

لم تجرؤ قبل ساعة، على رفع يدها لاستئذان العملة في الخروج، كما انها لم تعرف ضبط وظائف عضويتها. سوف يجد جسمها راحته في الحضانة، ويقدر رأسها ان صف الكبيرات وحده يرافقه. لايسير أحدهما والآخر في الدرب نفسه.

فهمت سريعاً أن صغر سني يؤدي بابوي الى العفو عني في كل شيء. يحب رؤيتهما يتيهان معلنين على الملأ أنني صغرى صفي. صغرى صفها.. ما أحدثهما عن صديقة، فسرعان مايسألاني: ماسنة ولادتها؟ في أي شهر؟ ولابد للمسكينة ان تكبرني بعامين على الأقل، فيحكم عليها بتسامح محبوب ، ما من منافسة لابنتهما.. فماذا يهم أن توسخ سراويلها وتتشبث بتعويض قصر قامتها بتحرر سلوكها من الانضباط، إنها الصغرى وهذا ينسى الباقي. تسجل أمي، على لوحي، أسماء الصفوف التي تفصلني عن الشهادة الثانوية وتعين، تحتها تماماً، عمري في شتى محطات درب المجد هذا. ستصبح عبقريتها الصغيرة الصغرى في الذروة وتحيط العام المبارك للحدث العظيم بهالة بيضاء. نستعد لنصر عظيم.

لايبدو ان أحداً في الصف يلاحظ جوبي. لا أقول عنه شيئاً ولا أحدث عنه. لم يحفظ سراً أفضل من ذلك أبداً. لكنه يمكن، مع ذلك ، رؤية ثقل وعدم تناظر فكي في الصور المدرسية. لم يشوهني بالقدر الذي خشيته أمي. لاتعرض أية معلمة، اية تلميذة، بتشوهي، واسكت دون حاجة أبوي الى نصحي بذلك. اتعود بالغريزة اخفاء مايمسني ويصبح السر عندي طبيعياً. لايمكن، في مدرسة رمبوية، القول بأن المرض يخيفنا. اذا رفضت الكشف عن مرضي، فاننا لانتضايق من اختراع مرض عند الآخرين. تشكو ابنة الساعي ألالاً تخرج، مرة كل شهر، أمعاؤها من بطنها لتغسل بعناية قبل اعادتها الى مطرحها. سرعان ما أنقل الخبر الى أبوي. يحاولان عبثاً التشكيك في روايتي، كففت عن الإيمان بكلامهما وآثرت حكايات صديقاتي. بل لا أحجم عن الزيادة عليها أما سنحت

الفرصة. ألم تنظف أمعاء بنت الساعي طولاً بالفرشاة؟ أصف بعناية الفرشاة المعنية لهذا الاستعمال، مستلهمة من صاقلة أظافر أمي. أنا أقل طلاقة كثيراً عندما يتعلق الأمر بي. لعل التلميذات يخترعن عني مغامرات ليس حباً لهم ماتحسد عليه مغامرات بنت الساعي. لا أعلم عنها شيئاً، على أية حال. جوبي هنا دائماً، لا أكبر ولا أصغر. أعجب بهذا المرض الذي لايجلب عذاباً غير الاحساس بالفرق ويأس الابوين والافراط في حبس الطفولة غالباً في غرف المستشفى، ولكن. أي إفراج عند الخروج من السجن.. عندما أكون على مايرام، أكون على أحسن مايرام حقاً. أنا ثرثارة لاتصدق وأقدم عربون الصداقة بوقوفي في طليعة جميع الضجات. انتشي بضحكاتي. أضحك مغلقة العينين، مؤخرة الجبهة، رأسي الى السماء. أضحك بكل جسمي. أضحك حتى الضياع. يقول لي أبواي أنني أضحك أحياناً في نومي. أنا في حاجة الى الضحك، ليل نهار ، لأحس باني حية.

أنا في منزل رمبوية، في أسفل السلم. يظهر أبي في أعلى الدرجات. انه هزيل جداً انقضت أربع سنوات منذ عودته من لمانية على أي حال، لكن جسمه مايزال يحمل أثر ماتحمله. ليست لديه أية ذكرى عن غيابه أو عند عودته. لم أكن ذاك غير رضيعة. سوف أعلم ذلك بعد وقت طويل من إمراض نفسه عمداً لإعادته الى وطنه. لم ينبغ له الافراط في ارهاق طبيعته. ألفيت عضويته واهية عندما قرر أن يضيف الى الحجز والعذاب العادي مافرضه على نفسه ليعود ويلتحق بنا بأسرع مايمكنه. حسبه خلع بصاطير بليت تماماً في حمايته من القمر، التقدم في الثلج، تعريض جذعه الأجوف للطقس السيء الاصرار ليلة بعد ليلة على تخريب بقايا شبابه. لم يكن أكثر من هكيل عظمي.

أعيد الى فرنسة في عربة صحية. لم تتردد أمي عندما علمت أن قطاره يصل الى المنطقة الحرة. اجتازت خط الفصل، مع مرشد، للقائه يكاد يصل وسوف تصبح هناك، مهما كلفها ذلك. ألم تذهب، منذ مغادرته، للصلاة كل صباح في القداس المرتل، هي التي لم تؤمن أبداً؟ ألم تعد الرب وجميع قديسيه

بكل أنواع الأشياء لو عاد، لو عاد حيا؟ ألم تخش ألا تعدها الحرب؟ كانت القذرة أخذت منها ابا سنة ١٩١٤، عقب ولادتها. هل تجسر على أن تنتزع منها زوجها، حبها؟ صورة أمي التي أوثرها هي صورة تلك الزوجة الشابة ذات النعلين الخشبيين. تسري الزوجة الشابة عبر الهضاب. تمضي لقاء رجل حياتها. انها جميلة أعلم أنها جميلة. هناك الحكايات. هناك الصور. انها طويلة، نحيلة جداً. تتألق شعلة في نظرتها. هناك دفقة جسمها كله. هناك خمشات الاسلاك الشائكة على بطتي ساقيها اللتين يكشفهما ثوب مغال في القصر. تتمتم طول الدرب: ربي ابقه حياً، مجرد حي، وسوف أدبر أمري في الباقي.

أحث أمي، كل حياتي، على ان تروي لي هذه القصة التي أعرف مفاجآتها. أحتاج الى التعلق بصورة الزوجة الشابة ذات النعلين الخشبيين. انها بطلتي. سوف ترفض أمي أحياناً اجاباتي: هذا من التاريخ القديم.. بل سوف تضيف انها لن تحب أحياء تلك الفترة في سبيل اي شيء، في العالم. ولكن مهما جاهدت في محو الصورة التي افضلها عنها. فسوف تستمر فرقعة نعليها الخشبيين في ذاكرتي.

استعادة أبي حيا، ولكن على أية حال... تمضي السنوات، يبقى واهياً واهناً. أراه يظهر في أعلى الدرجات. لزم الغرفة أياماً كثيرة. بدا لي غيابه طويلا. أراه عندما أبلغ السادسة من العمر. انه هزيل وشاحب. تبدو نظرته المزرقة باهتة. وتنصر شفتاه عناء. يزيده المعطف المنزلي الفضفاض من صوف جبال البرانس طولا وهزلا. يتكىء على أمي التي تعينه على التقدم. يقف بالضبط عند حد الدرجة الاولى انه سلم خشبي. يبدو لي ارتفاعه مصيبا بالدوار نظر لقصر قامتي. ارى أبي في الاعلى تماماً وأنا في الاسفل تماماً. انه على وشك الشروع في النزول وتتشبث أمي بذراعه تشبثاً شديداً. أجهل ماينتابني بفظاظة. تخطر لي كلمات لا، ليس كلمات، صرخات. تصعد. وتنفجر بغتة ولا أفكر في منعها دعيه، بل دعيه..

ياله من فدان غريب يقترنان به، أبي وأمي ملتصقات أحدهما بالآخر..

ليس ما أعانيه غيرة مع ذلك، أو ليس غيرة وحسب عندئذ. هناك امر اكثف وأوغل في الجنس. لا أرغب في رؤيته أبي يسقط فوق السلم. لا أرغب في رؤيته يغوص في الفراغ لا أرغب في رؤيته ينفسح على الدرجات مثل سلة مربي كبيرة. عندي رفض لعجزه. ومع ذلك أريد أن يجتاز الامتحان وحده. أعاني ضرباً من الانتفاض اذ أتخيله رهين مصاعب جسدية، إذ أراه يجاهد حتى آخر قواه. انها متعة في غير أوانها وطائشة سوف أتعلم فيمابعد كبح شططها.

كنت بين السادسة والسابعة من العمر عندما عين أبي في ليون يقرر أبواي ارسالي الى (نيول على البحر) ريثما يتاح لهما العثور على مأوى في مدينتنا الجديدة.

كم أحب نيول، هذه القرية القوية. المرتبطة بأرضها ايما ارتباط تصاقب المحيط لكنها لاتنتمي الا الى الارض. وعليها مع ذلك كل عام التنازل للعدو عن بضع فدادين عندما تلاطم أمواج المد يوم تساوى الليل والنهار. ليس رجال (نيول على البحر) بحاره، أو صيادين، أو سباحين. إنهم فلاحون ويودون من فلاحة الى فلاحة لو يزرعوا المحيط نفسه. إنهم فلاحون على الارض، فلاحون حتى البحر. يوسعون أملاكهم الفقيرة بحقول الطمي التي تغمرها الأمواج بلا كلل. ينصبون فيها جدرانا وحواجز لصيد المحار والميدية.

اذهب، عند الجزر، ولدى عمي أجمع كل ضروب الحيوانات الصغيرة في حدائق عمي. بها طعم الملح والطحالب واليود. نتقدم رويداً، سيقاننا غائصات حتى نصف الافخاذ في وحل مصفر يعود للانغلاق على أثارنا بالقطارة. كل شيء يلصق ويلزج ويحجم. كل شيء يصبح لينا واسفنجينا. تتعرى الارض وكذلك سيقاننا .ننتمي الى البحر وينتمي البحر إلينا. في الطمي حلاوة تشل الجسم، وعندما نسلخ جلد بحار بالنصل، لانحس الألم إلا بعد وقت طويل. لايوجد العذاب. في هذا التداخل المائع بين البر والبحر. لابد أن الفردوس مالح. اكتشف الطريفات هكذا يدعوه الصبيان والبنات في (نيول على البحر) ذلك.

يحمل كل، في القرية لقبا يشير دون رحمة الى العيب الجسدي،

السخافة المضحكة لايفلت شخص من الكاريكاتير. تتحول (نيول على البحر) في أحاديث البالغين الى شيء كأنه ميدان عجائب ولا يرى قط عند الآخر غير الأسوأ. يردد الاطفال، دون فهم، مايقوله الاكبر منهم. فيصبح الأعرج (القائمة المجنونة)، الجارة (الفول الطويلة). الجار (التين المجق)، الاصم (الاذن الجميلة)، ا لمشحم (الطفل كدم)، في لعبة المجزرة، هذه، ضربات طائشة. يهزأ من الاقارب، يضحك المرء من نفسه. يهزأ مما يخيف. يهزأ مما يفاجيء. بل انه ولو لم يرغب في السخرية قط. فان الثنية تتخذ ويتحول الضحك الى رد عصبي. الثمن باهظ، في شرنط، على المرء على الآخرين. فالكلمات فيها أقسى من الافكار. يحمل رجال (نيول على البحر) مثل سرطانات شواطئهم - عظامهم خارجاً ويصونون في أغوارهم سر لحم مفرط في الاحساس لحم رخص. تنتابني حمى وسط ألعابي. حمي مباغتة ومسعورة تدير ذرى شجرات الكستناء، الضخمة وتهز الحيز المثلث. يجري ولدا عمي لتحذير جدتي. انقل الى دارها. امدد في الطابق الاول في الحلكة. تغلق المصاريع. ولكن لعل تفكيري هو الذي يعتم. يهمس حولي، الا أفهم مايقال، يختلط صوت مجهول في نهاية السهرة، بالاصوات الاخرى. انه صاف دون صرامة، حازم دون تميز. أتعرف على صوت طبيب (نيول على البحر).

الرجل قصير لايكل. يذهب ليل نهار، من ضيعة الى آخرى، من محتضر الى مصاب. يولد عابرا فلاحة في مزرعة معزولة، ثم يعود من هناك الى بيته نشيط الخطوة، مقوس الجسم ينتظره، في غرفة انتظاره ، حوالي خمسة عشر شخصاً منذ ساعات، بعضهم قاعدون، الآخرون واقفون. يفيض المعالجون على درجات العتبة عندما لاتمطر. يدير شؤونه ادارة حازمة، دون ان يبدو نافذ الصبر أبداً. يدعه، القيح والصديد والنحيب والتطير، بارداً كالجليد. لايفقد، في وهنة وشدته، سنتمتراً من قامته القصيرة، يقال أنه يشبه بير فريسناي. ليس أغنى من في القرية، لكنه مولاها. وكل من في هذا البلد، حيث لاتمحص كل الثقة ابداً، حيث يقطع الحياء الاندفاع والحذر الحماسة. ومع ذلك فان أي شخص لايفكر في التهاون في تحيته.

سوف أجد هذا الطبيب في كتبي فيما بعد. يجعل منه جورج سمفون، الذي قطن طويلاً في (نيول على البحر) إحدى شخصياته. يدعوه (الدكتور القصير) في قصصه.

قال أحدهم، تلك الليلة، بعد ذهاب الدكتور القصير، عند رأس سريري، لا أعلم من هو، ظاناً أنني نائمة او أعجز من ان أفهم: «لن تمضي الليلة» لم يصدمني مثل هذا التوقع. بيد أنني فكرت بإنها خسارة جسيمة ألا أستطيع رؤية الد المقبل. مازلت حية، صباحاً. لكن الحمى لم تدعني. أنقل فوراً الى مستشفى روشل، أوضع هناك حيث يجد مكان. انها قاعة رحبة مشتركة. ما من طفل حوالي ، ليس غير نساء، ممددات على جانبي الممر المركري. كتب علي العيش ثلاثة أسابيع في هذا الحريم. الصباح مخصص للعناية وأنا محكوم علي بالبقاء ساعات ورأسي مطمور تحت أغطيتي. أمرت بذلك لايجوز لبنت صغيرة بأية حجة رؤية مايجري في بطون البالغين. لأنه يبدو، لكل النزيلات، ان البطون هي المسكن المختار للشر.

اختنق من الحرارة والملل تحت أغطيتي. تصلني ضجة تافهة أحاول تخيل أصلها. هناك غالباً صرخات وشهقات ألم ومحادثات مرافقة لا أفقه منها شيئاً. أجسر ذات مرة على المخاطرة بنظرة الى الخارج. وماكاد يتاح لي الوقت مرة لادراك بضعة سوق منفرجة حتى لفتت جارة سريري انتباه الجميع الى خطئي: «هذه الصغيرة رذيلة» فلا ألبث حتى أسترعاري تحت الأغطية. كان عليه رؤية سر بين أفخاذ جاراتي. لا أهتم بذلك البتة، لكنني أود لو استطيع تنفس الهواء الطلق والذهاب من هنا للانضمام الى ابنة عمي وابن عمي في ألعابهما، هناك في ساحة (نيول على البحر) المنحدرة.

صمم على مكافحة الحمي التي تغشى دماغي ولايعرف أصلها. السلاح هو المحقن. أوخز وخزة بينسلين، كل ثلاث ساعات، سواء في النهار أو في الليل. أتى العقار مؤخراً من أمريكة مع العلكة ومسحوق الحليب. يقال أنه يصنع المعجزات. الحاصل، تنخفض الحمى ببطء، لكن العلاج مؤلم لردفي الصغيرين

جداً. تزداد صعوبة العثور على موضع للوخز.يزداد عذابي عندما تتوغل الابرة في لحمي المتألم. تقول الاخت الطيبة انها بحثت كثيراً، وليس في مناطق عذراء لم تكن (ليون) قد رفعت انقاضها بعد. وجد أبواي، بعد بحث مضن، شقة صغيرة جداً قرب (جيرلند) لابد من نسيان (رمبوبة) وبستانها بجميع العجائب.، لابد من التعود على غرفتين في منطقة هجينة لم تعرف الاختيار بين المدينة والحقول.

كانت مبان قذرة ترسم ظلها على براكات صغيرة شيدت بعد القصف وسوف تبقي صقالتها المؤقتة نيفا وعشرين عاماً. يكاد الريف ان يموت على أعتاب بيتنا. فقد بعض ريعانه، في زبد الموجه الاخيرة. كان يتخذ طوراً مظهر أرض قاحلة، البالي، وطور يدع بساتين عاملة وألعاب كرة تخططه مربعات. بيد أنه كان ملاذاً لاطفال الحي الاشقياء. وسرعان ما أصبحت ، بفضل (موريس)، جاري وحبيب الاول، جزءا من عصابتهم.

كنا قد أقمنا في ليون منذ قليل. كان أول الصيف. تسطع الشمس كما تستطع في (رمبوبة) أو (نيول على البحر)، لكنني محبوسة في شقتنا في الطابق الثالث. اقضي ساعات طوالا الى النافذة، وأشعر أني سجينة. وتسحرني، من فوق، الباحة الخاوية، حتى الوراء. لا انفك أردد «أماه» أستطيع النزول؟ وأتشبث، سنين بطولها، بهذا الموال وغالباً ماتؤدي موسيقاه الواخزة الى تقوية مقاومة أمي.

لم يكن هناك مايجذب كثيرا، في تلك الباحة الضيقة الطويلة مثل دهليز. وتنفتح في وسطها على دار بعجتها القنابل. ويتفوق النبات على الحمق البشري، فيلصق ازهاره وفروعه النحيلة بالطينة. كان كل هذا زحف كارثة، لكنها كارثة عظيمة كأنها متشبثة بالبقاء.

أماه، أستطيع النزول؟ أماه ، أستطيع النزول؟ وتعدني كيف توقف شكواي، بتحرير الباب. وأهتم، رغم عجلتي، بحمل دبي. وفي ذلك اليوم تعرفت الى (موريس) في الباحة. تمت جميع ملتقياتي العظيمة في الهواء الطلق.

لعله أكبر مني بعامين، ذو ركبتين مسلوختين وساقين نحيلتين، لكنه لم يتوان عن العثور على الكلمات ليفتنني. سألني فيما إذا كنت أحبذ ان يزن دبي، أوافق، مفتونة. مالبث ان فشخ فوق افريز احدى نوافذ الطابق الارضي وعاد بسرعة كبيرة وذراعاه مثقلتان بميزان قديم صدىء اكد لي مفتخراً انه كان قد وجده في مقلب قمامة. دمغ الاهتمام الذي عرف ان يوليه الى حيواني المفضل، صداقتنا.

اتجهت الصداقة عند موريس بسرعة الى اخلاص. كان يزلق تحت مداسنا بطاقت بريدية مع ايمان حب وقلوب نافرة التقصيب يعطيني اياها ابواي بالسلطان الجدي، كنا نذهب معا الى المدرسة، مبتعدين عن بعضنا بعض أمتار قبل الشبك تحتاشيا لتلقي سخرية التلاميذ الآخرين. كان يصنع مشروعات للمستقبل. في السادسة عشرة من العمر سوف نخيم، وفي الثامنة عشرة، سوف نفتح لحم خنزير حيث نقطع كيلومترات وكيلومترات نقانق الخنزير. كنت اتبعه بحذر في هذه الدروب الطموح، مفرطة في الاهتمام بتذوق اللحظة لمعانقة المستقبل.

كنت أدع نفسي أحب دون أن أهمل مع ذلك جني بعض الفائدة من ذلك. وافق (موريس) على تبني. وهكذا استطعت الدخول الى عصبة الصبية الجريئين التي لم تكن تضم آنذاك اي بنت. لم يكن يتردد عن مد يده الي عند الحاجة . أدين له أخيراً بدرس، تشريح تجريبي، جميل. استعمل لهذه الغاية خرابة حيث أرغم جارا صغيراً على التعري ليبين لي، مدعوما ببرهان، مايفرق صبيا عن بنت. أظن ان فأر التجربة تأثر أكثر منه، وكم سررنا لرؤيته يفر كلما اقتربنا.

لم يكن (الرون)[1] قد ذلل، في ذلك الحين. كنا نلعب الطميمة والدقة، على منحدرات ضفتيه. كان النوتي يجسر على مجابهة اليم ودواماته بمركبه الصغير. وقلما كان يقطع ترويضه الا الفيضانات القوية في نهاية الربيع.

١) نهر ينبع في سويسرة ويعبر فرنسا ليصب في البحر الابيض المتوسط -المترجم.

عندما كنا نضع أقدامنا في مركبه الصغير الواهي، مفلتين من كل رقابة، فانما تداعبنا نسمة المغامرة. تصبح ليون افريقية. فنحن كشافون مقدسون، في المركب ذي المجاديف الحرة، وفي دوامات اليم. كنا نغني بأعلى صوتنا أثناء العبور مثل صيادي سان لويس اذا يعبرون الحاجز، لكننا ننزل من المركب الى الضفة وسوقنا مسترخية قليلا.

كنت أحب ألعاب الصبية. كنت أحب الا ترتد فظاظتهم على أبداً. كنت جزءا من العصبة، فأنا أذن موضوعة تحت أعلى حماية من كل أعضائها، ولا أشعر رغم ذلك أنني أدنى منهم، أو مدينة إلا قليلاً. وعندما كانت تسنح الفرصة أدخل في المغالبة، وأجرب بهجة وحشية في البرهان على قوة جسدية لاتنم عنها قامتي القصيرة وأمراضي. فألقي نفسي برمتها في أقل فعل، وإذ تخدرني اللذة لا أشعر بالالم إلا بعد الضربات والجراح بوقت طويل. أصد كرات تستطيع خلع صدري، وأعرض فخذي للاسلاك الشائكة. ولم توقف الحوادث الطارئة اندفاعي.

عاش موريس تلك الاعوام وهو في جهل مطبق بجوبي. ويحبني كما أنا ولا يطرح علي اسئلة أبداً عندما أعود بعد غياب طويل. فلاشك أنه يحسبني في اجازة، عندما أكون في المستشفى. اذ يظهر أبواي بمظهر الاغنياء في حي الفقراء هذا. فما أن يلهب الحر (ليون)، حتى نرحل الى (الالب)[1] الجبال (الليونية)[2] ويقنع الآخرون بإخراج كراسيهم المطوية وقضاء المساء في الثرثرة على الرصيف، كل أمام داره. كانت أسرة (موريس) مقيمة، أما أسرتي فمترحلة. كثيراً ماكان سيء الهندام، بينما تحرص أمي على أن ابدو بخير مظهر دائماً. هكذا كان الامر، وما نحفل بالفرق بيننا. وأحسب أنني لو بحت له بمرضي، فسرعان مايعير غيري من البنات بعجزهم عن عرض مثل هذه

---

١) أكبر سلسلة جبلية في أوروبا، تمتد من البحر الابيض المتوسط الى فيينه مقسمة بين المانيا والنمسا وفرنسا وايطاليا وسويسرة ويوغسلافية – المترجم.

٢) كتلة شرق الكتلة المركزية –المترجم.

الاصالة. فلم يكن لي نظير عنده. كان هذا الحب الطفولي غوثا عظيماً لي. ولعله جعلني مفروضة على من أحب. لأن (موريس) عرف كيف يمنحني كل شيء عن رضى دون ان أطلب شيئا. لايثق اللونيون، منذ النهضة[1]، بما يأتي من باريز فلا تكفي العملية الباريزية التي أجريت منذ عامين اطبائي الجدد يريدون رؤية جوبي عن كثب بدروهم. اذا اختار الباريزون التسلل الى فكي من الخارج، فان (اللونيين) ينتقون السبيل الداخلي. كما تيسلق الى قمم (الالب) و (الهملاية)[2] الشاهقة، تارة من سفحها الجنوبي وتارة من سفحها الشمالي.

أقمت، ما يناهز ثلاثة أعوام، ثلاث مرات في المستشفى، في المدن الثلاث التي سوف تعين حياتي. كتب (بول موران)[3] في (مدن البندقية)[4]: كل وجود رسالة مغفلة ا ،ر. «أما وجودي فيحمل ثلاثة أختام (لاروشيل) و (باريز) و (ليون).

أرى نفسي في حديقة المستشفى الليوني قبل الدخول ببضعة أيام. لا أعاني أي قلق. لابد مما ليس منه بد. على المرء تعلم دروسه، وأداء وظائفه. ومواجهة عملية مهما قل الشعور بالحاجة. إليها يجري كل هذا دون أن يعتريني التمرد.

انه الربيع. ترى سطوح (ليون)، من الهضبة على مدى النظر. يداعب نسيم عليل المروح. كدت أنسى لماذا أنا هنا. اكتشف ان المدينة، التي أعرف خاصة أراضيها الخالية ومناطقها المرتاحة. تملك احياء جميلة ايضاً.اتبعنا، للوصول الى المستشفى، طريقاً محفوفة بمنازل غنية يدفع عنها نباح كلاب وأسوار. فهناك اذن (ليون) أجهلها، ولعلي أبارك مرضي فهو يتيح لي تخمين ماخفي وربما انكشف لي ذات يوم.

---

١) منح هذا الاسم الى التجديد الادبي والفني والعلمي الذي جرى في أوروبة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولاسيما بتأثير الحضارة القديمة التي عاد الاوربيون الى تمجيدها- المترجم.

٢) أعلى سلسلة جبال في العالم في اسيا تمتد بين نهري السند وبرهمبترا - المترجم

٣) كاتب فرنسي ولد في باريز ١٨٨٨ - ١٩٧٦ مؤلف روايات وذكريات رحلات - المترجم.

٤) كتاب عن مدينة البندقية - المترجم.

أمسك يد أمي. اسعى الى توسيع خطواتي حتى ألحق بها. نتلاقى مع أناس، يبتسم لنا بعضهم، ويحيينا بعضهم، دون معرفة، كأن مصيراً مشتركاً يجمع بيننا في هذه الحديقة. لاترغب أمي في المشاركة في تبادل المجاملة. فلا أسمعها ترد التحيات الملقيات علينا. مع أنها لاترضى عادة، في مجال التحضر، أن تكون الاخيرة. وأني لاعجب من برودتها. عندئذ أرفع نظري إليها أرى ان وجهها، البعيد عن التعبير عن عدم الاكتراث، متغير كما في دار السينما عندما تعود الانارة بعد نهاية سيئة للفيلم. في نظرتها دموع. تسعى الى اخفائها. فتجففها بيدها الخالية، لان الشمال تضغط على يدي ضغطاً شديداً. منذ أن تتدحرج من جفنها الى وجنتها. ينتزع الجهد الذي تبذله لاحتوائها تكشيرة. يخترقني عذابها حتى العظم وأضيف إليه شعوراً رهيباً بالذنب. أنا أصل كل مايصيبها من سوء. أتعلق بيدها. اكف عن الحركة، متجمدة من الخوف، صغيرة جداً بجوار جسم المرأة التعبانة هذا. لم أرها أبداً بهذا الطول، ولم أشعر أبداً أنني بمثل هذه الحقارة. وأنا ذلك الشيء الضئيل المعذب عذاباً أبدياً الذي يتشبث بها ليزيدها عذاباً. لا أسعى الى تخفيف حزنها. كيف أستطيع ذلك؟ لا أعرف غير نشر التعاسة حولي. تعود الى ذاكرتي جملة أمي: «إذا شوهت، فسوف نذهب للعيش في (نيول). «هل ستلفظها من جديد؟ أفكر في صديقاتي في الصف. يقال، في شأنهن أنهن يتصرفن بشبه سحر. ولكن لماذا لا أملك ذاك السحر، كم وكم يلزمني من السنين لأكفر عن كل هذا النحس؟ كم يلزمني من العلاقات الجيدة لاصلح شأني؟ كم نجاح وهدية ومداعبة لأحصل على الصفح؟ كم لتعود أمي الى نصب ظهرها الذي حدبه الألم؟ كم لتجفف دموعها؟ كم لتعيد الى وجهها الضحكة العظيمة الفتية والنهمة التي أحبها؟

قيل أنني سوف أنام دون ان أدرك ذلك. كان قد خلص من الاثير، فقد انتقلت في مهلة عامين ونصف من عهد طبي الى آخر. لابد أن أقوال الاطباء وأقوال أبوي أصبحت مطمئنة لأنني نسيت تماماً التدبير للعملية ولمخاوفي. لعلي خفت، لكن ليس لدرجة الاحتفاظ بذكرى ذلك. لا أذكر غير اليقظة. فلابد انني

خرجت قبل ذلك بأمد طويل من غرفة العمليات، فما كنت اترنح قط بين الحياة والموت عندما رأيت أبوي قاعدين بجانبي سريري.

أصبح الاعجاز نفسه مثل المرة الاولى – لم أكن نافرة، ولن أصبح كذلك أبداً – بشيء ما أقل اقياء، أفضل تهدئة. أعود من ضفة قريبة دون اجتياز دوامة. ألقيت من جديد. حارة ولطيفة في وحل الربيع. يبتسم لي أبي وأمي وكأنهما حصلا على كفالة شفائي وابتسم لهما كذلك. زال شعوري بالذنب لم أشعر قط، وأنا ممدة بينهما، انني ازعاج. نتبادل بضع كلمات قليلة وأشعر أنها تخرج مني حتى عندما أسكت. نمتزج في حنان مشترك.

ثم مثل فيلم تمضي فيه الصور على مهل، يخرج أبواي من حيث لا أدري الهديتين اللتين يقدمانهما الي. يمد الي احدهما والأخرى، اطيب فاكهة العالم في تناظر تام يتفق طبعا مع التكافؤ التام في حبهما. توت أرض من جهة، كرزات من الاخرى، مدورة وحمر. توخياها ماوية وحلوة وريانة من الشمس. لن تعرض على بسطات الثمار المرهفة أبداً فاكهة بهذا الجمال. يدعني أبواي ألمسها بأناملي، مؤكدين لي ان الأوان مايزال باكراً على نوقها. على البقاء صائمة الى الغد، يمكن للوليمة الابتداء بعد ذلك فقط.

ارتكب جهاز المستشفى خطأ بترك الثمرات في متناولي. كان لابد من حبسها طيلة الزمن الذي حرم علي فيه أكلها. فما أن خرج أبواي حتى عدت الى النوم لاستيقظ مع سجو الليل. تعوي معدتي جوعاً، في الصمت. مسغبة حية وطيبة مثل العودة الى الحياة. أفكر بالثمرات الحمر. أبحث عنها، تخبطاً على طاولة الليل. كانت هناك، استولى عليها دون التفكير قط في الوصايا. لأيام أشبه لونها في الظلام، ولكن توت الأرض، لأنه حبس في كيس ورقي، يزيد نشر عبيره قوة. لم أتمهل في استنشاقها حتى الثمالة، كان هذا الاقتراب عندي مفرطاً في العبقرية لاتلبي تصرفاتي، في حالي نصف الواعي، إلا رغبتي.

تؤجج التوتة الاولى التي تسحق في حلقي، بعيداً عن إرضائي، جشعي. أريد منها أخريات وأخريات أيضاً. أحملها الى فمي واحدة فواحدة. وأريد بلعها

سرعة. لم تكن الثمرات قد غسلت ويجعل التراب الذي يعفرها طعمها واخزا إذ يسحق بين أسناني. ثم أمضي الى الكرزات. يبدو لي صلباً،مقاوماً. لا أدري بأية معجزة انصعت مع ذلك الى الحرص على نبذ نواها. كان يمكن لحماستي، في أقصاها، أن تؤدي بي الى بلعها.

عندما أفرغت الكيسين من كل محتواهما. نمت خاملة مثل سكران، دون مسح عصير الفواكه الذي يلطخ شفتي ويدي.

لا أدري قط فيما إذا كانت فيضاناتي هي التي ايقظتني أم أن الفوضى التي أطلقتها انتزعتني من نومي. على كل الاحوال، كان الضوء الكبير قد اضيء حولي نساء يصحن هذا مستحيل.. ولكن هذا مستحيل.. اكدت اخرى لابد انها الرئيسية كنت قد قلت لكن تماماً ألا تترك في متناولها. يالها من حماقة.. لايمكن الاطمئنان إليكن..

ها أنني ممدة في بركة تكاد مياهها تغمرني تماماً. إنها كثيفة وحمراء. ذات حمرة رائعة، حمرة آسرة. لا أحس إلا بجمال هذه الحمرة الجلي، بدل ان أدع نفسي تهزم أمام الزوبعة التي تعصف حولي. عصارة عجيبة سوف أحب من بعد تغطية حلواي بها. عجينة مائعة ومصفاة جداً تقطر من فمي على الوسائد والشراشف، داهنة كل فراشي بلوني. انفلات الاحمر، توت أرض وكرزات مختلطات، مهروسات، مميعات. لاينقطع الفيض سريعاً، بل يصعد الى شفتي ولا ينتهي عن الطواف بهما كأنني أريد أن أشير بالاحمر الى عودتي الى الحياة. ينضج جسمي فرحة ضحى النقه.

يجعلني أجلس، أشجع على إفراغي من جميع عصيري دفعة واحدة، أجفف، أغسل يعاد ترتيب سريري. يطرد الأحمر كما لو أنه الفجور بعينه. مهما يكن، فسوف يستمر على الاقل في تلوين أحلامي الى الأبد. أحب الأحمر لأنه يأتي من داخل ذاته. عرض المرء نفسه بالأحمر هو جعل جسمه مثل جلد الأرنب ليسلط الضوء على ماينبض وينزف ويفرح ويتألم. الأحمر لون حيواني وسري. هناك، في الطبيعة، زرقة البحر والسماء. بياض الثلج، خضرة الأعشاب والأشجار، صفرة الرمال. سواد الليل. الأحمر نادر. بل أندر مذ غابت شقائق النعمان عن حقولنا.

لانبعد في سكننا عن مسالخ (جرلان) وتفتنني بالية السلاخين والجزارين. ينقب هؤلاء الرجال في أحشاء الكائنات مثل الجراحين أو القسس أو القتلة أو الفنانين. لاينقطع نشاطهم أبداً. كانت خمارات المسالخ، في ذلك العهد، تظل مفتوحة منذ الصباح الباكر حتى الهزيع الأخير من الليل. هناك كذلك تعلمت ان أحب الأحمر. اللوح غني. أحمر مخملي، لون النبيذ، أحمر قاتم، الدم الجاف قرمزي، أحدث بصمات الأصابع على وزرات الجزارين الواسعة البيضاء. زهري، شرائح العجل في الصحون عندما تنبثق منها السكين المدببة دما مايزال طريا. الكبريت الأحمر، شفاه النساء. أحمر مزرق، لثثهن. أحمر قان وأحمر باهت، شقات البقر المتناسقة في الطنابر. العمل بالأحمر هو المرحلة الثالثة والأخيرة من التحويل السيميائي نحب العمل بالأسود والعمل بالأبيض. يكرر السيميائيون. احرصوا على ألا تروا ظهور الأحمر بسرعة مفرطة، لأن القوى العليا تبزغ معه.

لم يؤخر نقهي مهرجان توت الأرض والكرز، في هذا المستشفى، هناك في العالي على الربوة لدي ذكرى زمن هادىء ربيعي. في الأسرّة المجاورة أطفال آخرون اسقم مني بكثير، ومن زمن طويل دون ريب. أحس، بالمقايتة، أن مرضي لايصيبني في العمق ويصبح جديراً بالاهمال ان صح التعبير. بما أن أي عضو حيوي لم يمس. لن ألبث أن أمشي، أن التحق برعاع حيي، أصبح طفلة مماثلة للآخرين. تهدىء هذه الطمأنينة نفاذ صبري. الطقس صاح. تكرج أسرتنا، ساعة القيلولة، حتى الفسحة المظللة. لايسمع قط غير خرير دفقات الماء التي تدور على الاعشاب. اتمتع بالبقاء متسيقظة بينما ينام الآخرون. (ليون) عند قدمي وتضيع ضجتها في الفضاء، أحسب، في بعض الأيام أنني أدرك بعيداً، بعيداً جداً في الاتجاه الذي بينه لي أبي، المقطع الكاذب للجبل الابيض. أحلم دون أن أنام، لابد لذلك من لزوم جمود مطلق. سوف أحلم هكذا على شاطىء (نيوا، على البحر) حصاة بين الحصى، (بامريكة) فراراً وراء الأفق.

مهلة عشر سنوات. لن يفتح جسمي قط، خلال السنوات العشر التالية.

أعود مالا يجوز الانقطاع عن كونه: عالماً مغلقاً. بيد أن أمي تقودني، كل خميس - كان هناك عطلة خميس في ذلك الزمن - الى عيادة سريرية من أجل جلسات أشعة.

تقوم العيادة كذلك على الربوة، قرب المستشفى الذي عولجت فيه. حسبت، أثناء ذهابي اليها ذات صباح، أن الدور الجميلة على مرتفعات (ليون) ربما كانت محبوسة على الذين يتنفسون بعسر، الأغنياء المرضى. أحس باني مقحمة إذ أني لا أنتمي الى أي من هاتين الزمرتين. غنية؟ لا أعلم تماماً مايعني ذلك، لكنني أحس أنني لستها. مريضة؟ البتة وعد أبواي ان كل مافي فكي سوف يعود الى حالة بالتدريج، بفضل النمو والأشعة.

سوف أصعد الربوة كل خميس، خلال شهور وشهور، سنوات بلا ريب، لا أعلم قط، ينسي الايقاع المنتظم مفهوم الزمن. أمدد على سرير ليس بسرير، بارد قاس، يرغم جسمي على السكون. أحس الحضور الجليدي للزجاج والمعدن على طول اطرافي. سلاح ضخم معلق فوق رأسي. يبحث عن جوبي ويجده ويقترب، الرأس الضخم الماص، ويسدد إليه ويقصفه. تلك هي الكلمة التي اقتنصتها في المحادثات حولي. وتوهمت أول مرة أن جوبي سينفجر في عجينة من الخشب والجص والخردة مثل الدور المكنوبة في (جرلند).

فوجئت بعدم الاحساس بشيء وبالخروج سالمة. وهكذا، فإمن مرضي وعلاجي لايجعلني أتألم. ما عالم الشبح ذاك حيث لايحدث الأذى أذى؟ حيث لاينتج القصف في الظاهر أي تفسخ.. أليست أشعة (إكس)، مع ٠(س) المجهول في الجبر، الرمز التام لهذا المرض بلا اسم الذي كلف تدميره من يخرج رابحاً من هذه المعركة ،(س) ضد (س)؟

ساعدتني أشعة (إكس)، في المدى الطويل، على الانتصار. أوقفت نمو جوبي، حتى« أن الحنك اليمين قارب الشمال شيئاً فشيئاً. وبعد أن نسيا البعد عن المركز عاد التناظر الى حد ما على كر السنين. أريد برهاناً على ذلك صوري التي رسمها أبي. لانه اندفع الى التصوير الزيتي والرسم. كانت له ضربة قلم

شهيرة تشهد على نسبه. لغة (الشرنتيين)[1] وحشية، كان رسمه دون تسامح.

كان يرسم زملاء المكتب في السر وتكشف دقة خطه عيوبهم كشفاً كاريكاتورياً. يوم رسم وجه أمه وطلبت منه هذه. دون حرص، تأمل العمل، رأيت جدتي تنتحب، يسبب قلمه خسائر ولا تستطيع ريشه ستر فظاظة الرسم الاول. لم يكن يحابي ابنته نفسها. كانت صوري في ذلك الزمن تكشف قليلا ثقلاً في حنكي الشمال. لي وجه بنت صغيرة سوية جميل. هكذا يصورني أبي، دون الفضائل التي يحسب عادة انه لابد من اسنادها الى الطفولة. لم يكلمني أبداً على أنني طفلة صغيرة، حتى عندما كنتها.

لم يكن بيننا قط كلمات حلوة، حركات انفعالية، عرض عواطف، مجاملات مدعومة. بيد ان أبي غالباً ماكان يحدث، زملاء المكتب، عني بفخر وحنان، أما في حضوري، فيبدو أكثر اعتدالا بكثير، وفهمت من بعد أن المداعبات المفرطة في الألحاح، احتجاجات الحب المجلجلة، كانت من شأن اباء مهملين او غائبين.

تعود الي سنوات جوبي بوضوح ظاهر. أعلم مايدين به هذا الاستحضار للذكرى. أعلم كذلك مايدين به لكل ضروب المذكرات. هناك روايات أبوي. ظلت تلك السنين محفورة في نفسيهما ولو تذكراها بدقة، فلن يستطيعا السيطرة على القلق القديم الذي يغزوهما من جديد بالتفكير في ابنتهما الوحيدة والمريضة. لايخاطر الا بحذر في تلك المناطق الخطيرة. أرادا بتحفظهما ألا يصبحا شاهدين مزعجين لي، فيثقلا ردحاً من حياتي استطيع السعي الى نسيانه.

دعمت الصور الضوئية والافلام ذاكرتي. فأبي دائماً قائم على خط الثورة التقنية الاول. لم يكن يؤمن إلا بالمستقبل ويظهر ايمانه هذا بإبداع مخترعات لايحصل على براءتها، أما اهمالاً أو لفقدان المال، فيسرقها آخرون منه. لاترضي وظيفة مفتش البريد والبرق والهاتف روحه البتة. أما أن يعود، في

---

(١) الشرنتيون سكان محافظتي (شرنت) و (شرنت البحرية) في (فرنسة) وأسرة أبي (نقولا ابريل) من قرية (نيول على البحر) في محافظة (شرنت البحرية) المترجم.

(رمبوية)، من عمله حتى ينطوي في مخبره على نفسه. إقامة في كهف الدار. يتخيل، هناك تغيير في آلية السرعة وفي عمليات التحميض الفوري لافلام التصوير. يمكنه ربح ثروات، لكنه لايهتم بذلك. كل مايهمه اطلاق العنان لاحلامه. بل انه ازال خطنا الهاتفي كيلا يقطع أي شيء جريان أفكاره.

وضع ضيق شقتنا، في (ليون) حدا مؤقتا لمخترعاته. لا مخترع دون مخبر. عندئذ بدأ التصوير الزيتي. ثم اشترى احدى آلات التصوير السينمائي الاولى ٨ مم. وهكذا أصبحت من الأطفال النادرين في جيلي الذين يصورون في مختلف درجات تحولهم. هذا الذي أصبح مبذولا لم يكن كذلك عندئذ.

تعدل الذكريات واقعة أن أصبح من بعد مشاهدة سنوات صغرى. تعطيها دقة الوثيقة وقد يفقد المرء كذلك، في رؤية نفسه حدة الاحساس والعاطفة. وكلما أفرط في مشاهدة نفسه ونسي اكتشافها. ومن جهتي، فان المرض بصم بصمة مجوفة. فلا أستطيع رؤية سنوات جوبي تكر على الشاشة دون أن تصعد رائحة الاثير الى انفي، ويصعد دوار النقه الى رأسي.

لم أر هذه الاشرطة القديمة منذ زمن طويل جداً. عثر عليها أبي بمناسبة احدى النقلات التي تحرك المخلفات القديمة. عرضها علينا عرضاً خاصاً: هو وأمي وأنا. وينضم الى الابطال الثلاثة الرجل الذي يحبني.

اكتشفني طفلة. يقول أنه لم يكتشفني. يقول انه تعرفني، تعرفني فقط، يقول أنه رأى في البنية ماسوف تصير من بعد، ما أنا في الوقت الحاضر. تقفز الاشرطة في أسود وأبيض الذاكّرة، أعظم بها هدية تقديم ماكان عليه المرء، ومازال عليه، الى من يحب.

كان يراني اترنح على سطح، بحر (الجليد)[1] الصقيل. كنت في السابعة من العمر وشعري أجعد كما هو اليوم. ارتدي ذاك المعطف الطحيني الذي نسيجه ذو وجهين والذي اشترته أمي من زقاق (ريفولي) قبل عمليتي الاولى. انه قصير جداً على ساقي النحيلتين.

١) جمودية في جبال (الالب) الشمالية في (فرنسة)، في كتلة (الجبل الابيض) -المترجم.

لابد أني زدت طولا، وإذا حلت الحاشية للعودة الى اطالة لباسي، فان فضلة النسيج لن تكفي لستر فخذي. أتنزه عبر أزقة (شموني)[1] أتكلم لكنه لايسمع غير هدير آلة العرض احرك يدي، أضحك، أغمض عيني، أقفز، أكثر وهذه المشية مشيتي، والحركات حركاتي، والضحكات ضحكاتي، تغير كل شيء وكل شيء متشابه.

نحن في قطار اتذكر. ينقلنا هذا القطار من (شموني) يبتسم أبواي. ما أفتاهما.. ينعقد حلقي. فتيان وجميلان جداً. تضطرب الارقام، السنوات، في رأسي، نعم، كانا عندئذ أصغر بكثير مما أنا اليوم. تضطرب الصور، ثم تعود الى مجراها الطبيعي. شعر أمي حالك السواد وترفع تسريحتها، المنتفخة فوق الجبين، بيضوية وجهها الواضحة. أبي هزيل نظرته حالمة، تحت قوسي الحاجب المتجعدين تجعداً خفيفاً، يرتدي ممطراً ذا حزام، وترتدي امي ثوباً قطيفا ذا مربعات صغيرة سود وبيض مزموماً على القد. وهما مرصوصان أحدهما الى الاخرى كأنما يخشيان تجاوز اطار الصورة.

يؤكد أبي، مرتين ان (نيكول) هي التي تصور. ولم يكف، وهو المتحفظ، عن الاعجاب بمواهبي سينمائية. اعتقد تماماً أن أي حدث في حياتي، أي نجاح، لم يؤجج فيه مثل هذه الحماسة. كانت آلة التصوير في يدي طفلة لعبة رائعة . كنت اتمتع بقنص ابوي بفتحتها. يقلق أبي: هل ترينا؟ هل ترينا جيداً؟ بل أنه يمضي أحياناً الى حد قول: «حذار من وضع أصابعك أمام العدسة.. مما يغضبني،. فمن يحسبني؟ لم اضع أصابعي امام العدسة أبداً. ياللشيطان. كم أتدبر امري وأنا في السابعة من عمري.

تظهر على الشاشة (نيول على البحر) القديمة، قطف العنب، القداس، الحصادة، الدراسة، المهرجون والمهرجات الذين ينقضون برؤوسهم على أكوام

---

١) مركز هام لمتسلقي الجبال ورياضة الشتاء، في سفح (الجبل الابيض – المترجم.)

النخالة أو رزم الشعير. يعود كل اولئك الذين لم يعودوا على قيد الحياة والذين تركوا الناشج ابتسامة أو ايماءة. جدتي التي صورت بغتة في قميصها الرمادي القديم والتي تسعى لتستتر بنبات أخضر. ابن العمّ (جورج) الذي وقع عن سطحه وهو يضع القرميد الذي خربته العاصفة (جورج) الآخر. الذي مات في أعقاب حادث، فقد صفحت عربته تحت شاحنة امريكية عندما كانت (لاروشيل) قاعدة أمريكية. العم (شارل) الذي كان لديه اجعل فوشيه[1] ارجواني في الاقليم.

تعطي آلة استعادة الزمن، الراحلين ضحكة الخالدين الفتية. تهدر آلة العرض، ولكن ليست هي التي اسمعها. يبادرالبكم، في ذاكرتي، الكلام. هناك صيحات فرح، تعجب، لان كل هؤلاء القرويين الذين تعودوا الحياة في الهواء الطلق، في صخب الرياح والامواج، يتكلمون بصوت عال. تقول عمتي: هيانامو! ، ايها الاطفال. كنا نحب النوم على ترجيع المحادثات. تحفز همهمتها أحلامنا.

أنا جالسة مع ابنة عمي على الردم مقابل المحيط. بنيتان، متدثرتان بملابس صوفية، أحداهما شقراء والآخرى سمراء، يطير شعرهما. صورتهما الالة في غفلة منهما. تضيع نظراتهما المتوازية بعيدا. تصمتان. بم تفكر البنتان الصغيرتان؟ هل تحسان الآن بهذا التعاقب يشدهما بعيداً شدا لامناص منه؟ لم هذا الصمت؟ كانتا ثرثارتين جداً، مجتمعتين وعندما كانت أحداهما تأتي من (ليون) في العطلة، فان الاخرى لاتنسىٰ ان تقول لها، منذ أن تجدا نفسيهما وحيدتين في الغرفة: «احكي» ويجعلهما البوح يقظتين حتى الصباح. يشتبه، في هذه الصور القديمة، أحياناً بعدم تناظر وجهي، لكن احداً لايتحدث عن هذا. يبدو ان كلمة جوبي عفيت لعل ابوي يحسبان انني لم أقل، لم أحب عذابي الماضي. الواقع انه لايجهل شيئاً. انه الوحيد الذي ابوح له حتى اليوم. لم يفرح اي حب آخر، اية صداقة اخرى. شفتي. الذي أحب هو الذي يعلم كذلك.

---

١) نبات بين الشجر والبقل مشهور بزهره يعرف باسم نباتي الماني –المترجم

زاد شعوري بما يربطني بالبنت الصغيرة القديمة، لدى سماعه يعلق على هذه الاشرطة يقودني. بحبه، الى عدم الخوف من الماضي. كنت أراه يثبت الشاشة ثم يضيف شيئاً فشيئاً، صوراً جديدة الى الاخرى، الى صورنا. يغرقني برمتي في حبه.

ربما كانت الكلمات التي اكتبها، في هذه الساعة، قد تسربت الي منذ ذلك الزمن. آخذ، ما أدين به للكتابة، من حبه قبل كل شيء. يسرني ان أظن ان أبي نقل اليه ذكريات لم يبح بها لاحد وان الصور حلت محل الكلام.

يخفف قلق أمي، فلا تمشطني قط ساعات بطولها. ولا أطيق ذلك. فلا احتاج، في اللعب مع صبية الحي، الى تلك العقد الحاصلة بواسطة عدد كبير من ملاقط الورق المقوى. تخصص التجعيدات لقداس صباح الاحد في (نوتردام ديزانج) حيث أذهب مع رفيقاتي في التعاليم المسيحية. ليس أبواي مؤمنين، وأقل ممارسة ايضا. يمثل ابي صورة الاصل في الاسرة. لانه لم يشأ الزواج في الكنيسة. كان من شأن أمي أن تقبل راضية، مباركة الزواج ، فهي لاتحب ان تميز نفسها. ترسلني الى الدرس الديني. لتفعل مثل كل الناس. وعندما أعود متحمسة – أعبد التاريخ الديني والبخور والصلوات – يلقطني أبي ببرود ليسألني: اية حماقات قصها عليك الخوارنة ايضا؟ لا أجيب. لي روح وأتمسك بالا يمسها أحد. يكفي أن المرض سمح لما هب ودب من الايدي الغريبة بالعبث بجسدي، فلن تمس روحي، وكلما وضع مايقال في (نوتردام ديزانج)، موضع الشك كل أصبحت تلك الاقوال التي احفظ سرها عزيزة ومشخصة عما قريب. عزيزة علي، جزءا مني.

إذا كانت أمي قد كفت عن تمشيطي خلال ساعات أمام المرآة، فذلك لانه لم يعد لديها الوقت كذلك. انها تعمل في الوقت الحاضر، أنا معي مفتاح البيت في حقيبتي. عندما أعود في نهاية ما بعد الظهر، فعلي وحدي ايقاد مدفأة المطبخ. يحشو أبي، قبل ذهابه، خطم الوحش بورق ممزق وقطعة حطب، ويملأ السطل في الكهف بكتل الفحم. أحب قدح الثقاب ونزف اللهب بين أصابعي

الشلاء. وأدسه في كوم الورق الذي سرعان مايتغذى قبل غزو الحطب. عندما تحمر الكتل، اغلق المدفأة وأقعد الى طاولة المطبخ لانجز وظائفي.

انني سيدة المحرق اسهر عليه كذلك قبل عودة ابوي، حسب وصايا أبي الذي يسودنه نار الموقد. ارفع أحياناً الغطاء المعدني بطرف ملقطي وأتمهل ملتهبة الوجنتين، لا أرى اللهيب ينضفر في شرر. ألمس البوري بأطراف أصابعي للتحقق من أن حرارته ليست مفرطة في الارتفاع أعلم أنه إذا بدأت في الاحمرار، فانه يخشى التهاب هباب الموقد بدوره. ينغبي تجنب الكارثة بأي ثمن. لكن الفوهة الحمراء للمدفأة تشخر شخيراً لطيفاً فأعود الى وظائفي. انني الاثيرة عند المعلمة. أرجع هذه النقمة الى قامتي وعمري وحماستي للدراسة. يعجبني كل شيء من الحساب الى الرياضة، عدا الخياطة . أحل أحياناً مسائل الرياضيات لبنت العطار التي تدفع لي سكاكر قاسية السطح، الطرية جداً في مركزها . أهدي، في (رمبوية) هرجاء حديقتنا الى المعلمة. ولاسيما الارجواني المخملي، ذا الانعكاسات شبه السود. الأثيرة عندي ليس هناك هناك قط، في ليون سوى شوكيات الارض القاحلة.

لاأحب ان أكون متملقة، فإذا عدت من المدرسة بدرجة ثانية، قال لي أبي: الحق انه ليس هناك مايدعو الى الفخر. فعليك ان تكوني الاولى. واذا كنت الاولى، فسرعانماينقص فرحي وفخري. يزعم انني لم آت بأمر عظيم، اذ أنني من التمليذات النادرات اللواتي يفخرن بأصولهن الفرنسية. أليس للاخريات ألقاب ذوات وقع هجين، ولاسيما طلياني، اسباني أحياناً، بل ويوناني؟ اكتشف ان لي مايدعوه ابي اصولاً ولا أتأثر بذلك بقدر كبير. أمي أسمح معي. تجد عزاء شديدا في أنني صغرى صفي.

امتاز بالتحلي بذاكرة ممتازة مدربة تدريباً تاماً منذ سنواتي الاولى بفضل أبي وقد علمني كذلك طريقة احصل بها على نتائج طيبة بأقل جهد. أقرأ دروسي على مهل في سريري قبل أن أنام، فأعرفها عند الاستيقاظ عن ظهر قلب. ومع ذلك فأنا بعيدة عن أن أصبح تلميذة قدوة. أوغل في قلة الانضباط

لتغفر لي رفيقاتي علاماتي وقصر قامتي. لابد لي كذلك، مرة في السنة، من تعطيل السخرية التي قد يجلبها لي لقبي. ابريل أي معني في التلقب بابريل عندما يأتي تقويم السنة الجديدة. أعجل في رؤية أول ابريل في أي يوم يقع. مباركة الأعوام التي تقع فيها في خميس، والافضل، أيضاً خلال عطلة الفصح. وبذلك أنجو اما اذا كنتب علي الذهاب الى المدرسة في هذا اليوم، فانني أخوض رأساً في الهجوم بغية تحاشي المداعبات التي أخشى أن أكون ضحيتها. لم يبزني أحد في تعليق سمكات ابريل على ظهور بريئة. وأنا على رأس كل حنجلة فأعود مساء الى الدار مستنفدة. ها قد نجوت حتى العام القادم.. سوف اقضي وقتاً طويلاً حتى أقبل لقبي، بل سوف أحبه الى درجة انني لا أريد تبديله سرعان ما يضاف، إلي ثقل لقب يثير السخرية الطفولية، حمل أقصم أيضاً لن أقدر كل عبئه إلا بعد دخولي المعهد. كأنه لايكفي ان يكون حيي فقيراً ، بل لابد ايضاً لازقته من حمل أسماء مضحكة. ويحكم القدر بأن أسكن أسوأها، ذاك الذي تسميته ادعاها الى السخرية: زقاق (الكولاتات) انه طويل جداً، يتعرج من زقاق (مرسيلية) الى المسالخ في قلب (جرلند) تماماً. ويصنع كوعاً على ارتفاع داري بالضبط ولو اسعف الحظ فصحح خطه ليصبح مستقيماً، لافلتت من هذه التسمية المنهكة. لاشيء من ذلك، بل لعله انحرف للتمتع بصب اضحوكته علي. (زقاق الكولاتات) لا تبحثوا في خريطة (ليون) فقد اختفى اليوم. اعيد تعميده لتجنيب سكانه الراهنين العار. ليتهم بكروا..

من أية زنزانة تحت الارض أتى هذا الاسم العبثي؟ لم أعرفها ابداً، ولم أسع ابداً الى معرفتها نبذت الكلمة ولم أغرب في اللعب عبر حقلها العلاماتي. بل انني رفضت، حتى يومنـ هذا المضي الى الاقرار. سألتني صحفية في (ليون) منذ أشهر قليلة، أين كنت أسكن في مامضى فأجبت في زقاق (مرسيلية) كي لا ألفظ الاسم الذي أمقته، لم ترتب في ما يحرك هذا السؤال في نفسي من التشؤون.

كنت أجد اسم زقاقي غريباً، في زمن المدرسة الابتدائية، لكنني لم أكن

أحفل بذلك. ثم ان مدرستي ذاتها كانت تقوم في زقاق (الكولاتات)، فليس لدي ما أخشاه في البوح بعنواني. سوف لايكف العار عن التضخم على كر الاعوام. فأصبح في الثانوية ثقيلاً. وفي الجامعة لايطاق. وعندما أخيراً اسعد لا بالعثور على شقة أروج، بل كذلك لعدم اعطاء عنوان يثير الضحكات.

أعلم بان ذاكرتي ظالمة زقاق (الكولاتات). فقد كنت سعيدة مع رعاع الخرابات. وتعجبني مدرستي. احبتني معلماتي المتواليات، وقد أحببتهن كذلك وكم أسفت عندما أتى زمن المعهد وناعورة استاذته. كيف التعلق بأشخاص لاياما يروا بضعة ساعات في الاسبوع، أنى لهم التعلق؟ بيد انه سرعان مايتجلى الجبذ والنبذ. رغم تقطع العلاقات. اذ يتيح النظام السلطوي للاستاذات التعبيرعن عواطفهن دون أن يأبهن كثيراً بحساسية تلميذاتهن. تنتقم الطالبات المضغوط عليهم بدروهن بأفظع فظاظة من أضعف الاستاذات. المعاهد العصرية للفتيات. كانت الحرب مستمرة. في هذه المؤسسات ذوات التسمية البالية.

اكتشفت هنا أني قد أمقت دون سبب ظاهر، كما أحبوني من قبل. اذ ان الآنسة م، استاذتنا في الفرنسية، تبغضني ولاتحاول اخفاء ذلك. فهي تنثر الرعب بين آنساتنا في الصف السابع، بحاجبي الملكة الشريرة في الثلجة البيضاء، المقطبين دائماً، وأنفها الغريب، ونظراتها الشرسة. بيد أن جام غضبها من نصيبي، ولا يلطخ التلميذات الآخريات غير زبده لاتناديني الانسة م. يلقبني أبداً ولا باسمي. بل كنت: «أنت، هناك، يامن فمكم في قلبكم..» أفهم من صوتها، من نظرتها، انها لاتحمل تقديراً بكل بداهة، لفمي او لبقية شخصي. هناك تنويع في تسميتي، فعندما يترفع النغم قليلاً ايضا. ينقلب فمي الذي على شكلي. قلب عندئذ الى رجاجة وأظل بكماء «حمقاء».

كانت دروس الفرنسية عذاباً. لكن الانسة م. تصبح حنوناً بغتة فكلما مات كاتب ، تلت علينا صفحات الوفيات باكية.

وهكذا اذرفها رحيل (اندره جيد)[1]، الذي كنا جميعا نجهله، الدموع اسبوعا برمته كان كسباً لابأس به عندي. فسوف اسعى، بالنظر الى ماسلف، الى الظن بأنه لايمكن لامرأة تبكي لموت كاتب أن تكون شريرة تماماً.

وفي المقابل، تشغف الانسة ت. بي مع أنني لم أكن شيئاً في الرسم، المادة التي كلفت تدريسها. كان درسها يحدث صخباً عظيماً فتتدخل الاستاذات المجاورات أما اجتاز زعيقنا الحواجز. ويحيط بجبهتها شريط مخملي أسود، وقد تقع، وهي السكرى غالباً، في الطريق. ناثرة حولها الروائع التي سلمت اليها توا. وهي ترسم وجهي على هامش دفتر النصوص ولاتنسى ان تضع خير العلامات على أحط خربشاتي. وتعهد الى رفيقاتي بأعمالهن، لتكليفي جعلها تصححها. فانتصب امام المنصة حيث تقعد الآنسة ت، بالطمأنينة التي يمنحني إياها اليقين بأنني محبوبة. وأمد إليها رسم اخرى. وسرعان ماتجاملني، وهي في غاية السرور بالاحساس بأنني في مداها، وتعطي الوظيفة علامة مغالية مثل الهوى الذي تكنه لي، متظاهرة بعدم فهم خطتي.

احتميت بسني زمناً طويلاً. حتى اليوم الذي أصبح فيه مزعجاً. كنت في الصف التاسع. كان لصديقاتي نهود ومقابلات عاطفية وكلمات اعتذار من دروس الرياضة، مرة في الشهر يتهامسن في الآذان بقصص تعتبر قذرة. وعندما اقترب لاسمع، ينبذنني بحجة سني. أنت صغيرة على هذا. صغيرة جداً ياصديقتي.. كثيراً ماروِيت ابشع الامور لانازلهن في أرضهن، ويبدو أن جسمي كان عقبة أمام الانغماس في الاثم. اقرر عندئذ اعادة السنة هن لم يعدن يردنني. وأنا لم أعد اريدهن. امضي سنة برمتها لاأفعل شيئاً، سوى أن أكبر. وأحصل على النتائج المنشودة، دون عناء، أصبح في شهر حزيران، أكبر من في صفي، وها أنا أرفض الانتقال الى الصف العاشر.

كان حسابي ناجعا لانني اكتشفت في، في السنة التالية، بعض الموهبة في الانشاء الفرنسي ظللت أعاني حتى ذلك الحين، أعظم المصاعب في الارتجال

---

١) كاتب فرنسي ولد في باريز (١٨٦٩ – ١٩٥١).

حول الموضوعات التي تفرضها استاذاتي. اذ ترد المعاني رديئة عندما ألح عليها بسلطان، والكلمات أنكى منها. أذكر أنني ضيعت أياماً كثيرة في موضوع انشاء في الصف الخامس، يعلم الله كم كان سخفياً على وصف واجهة اختارها بمناسبة قدوم عيد الميلاد، أعتقد جازمة أنه نفرني الى الابد من السرو والأكاليل وأطراف فتيل الشمع. وكأني أبي يهب لنجدتي للتفكير عن إفراطه في التعجيل بطرد نده، بابا نويل، من أحلامي. فيملي علي جملا، لاتوسوس لي نفسي، ان فرح عني، اضافة حرف من قريحتي. لقد نجوت، مرة اخرى بيد أنني احتفظت زمنا بالشعور المبهم بأنني أفلت من خطر. ألا يضنيني البحث عن اللفظ وعن المعنى؟ هل عذبت الكتب التي احببت قراءتها حباً جماً، مؤلفيها؟ أحسب أن هناك نواحي خطرة ينبغي تفاديها بأي ثمن. ولم تسو الامور، في السنة التالية، المعاملة السيئة التي عاملتني بها الآنسة م. استاذتي في الفرنسية.

حصلت المعجزة عندما بلغت الرابعة عشرة من العمر. حان الاوان. طلبت الاستاذة في هذه المرة، وصف مكان مألوف نكتشف انه قد تغير، لا لأنه قد عدل حقيقة، بل لاننا نحن الذين تغيرنا. سرعان مافكرت بحديقة أبي في (رمبوية) وبعمري في السادسة - فأعود ارى الذرة واليقطين، والسوسن والهرجاء. أعود أرى الشرفة النخرة. أهي التي تزج تحتي، أهمها ساقاي اللتان لاتقويان على حملي؟ أعود أرى ألوان الصباح في النور الوافر. أحس بالحياة تغزوني كما صنعت قبل ثماني سنوات. وأطرد، لأول مرة ، امام النسخة البيضاء. الشعور بالعجز الذي شلني زمناً طويلاً.

لاريب في أن كلماتي كانت ركيكة لكنها ترد بسلاسة ولا أدري قط فيما اذا كانت هي التي تسيرني ام انها الذكرى وحدها وقد ازينت بي. لا أميز بين الاثنتين. تنهكني العواطف والجمل واستنشق الفرح العابر في حدائق أبي. وهكذا كان لي ماض وأنا في الرابعة عشرة من عمري. تعلمني اياه الكتابة. تصعد سعادة النقمة من الطفولة حتاي. ينير سطوعها ذاكرتي وخيالي، تحتفل

الطفولة المريضة بعودتها الى الحياة. باملاء كلماتها على المراهقة. تبعث (رمبوية) المنسية منذ ثمانية أعوام في قاعة صف ليوني. ولا أدري قط فيما إذا كانت اللذة التي أسرتني راجعة الى عودة الحياة أم الى فيض الكلمات الذي خرق الصمت أخيراً. يختلط كل شيء على كر السرد أشعر ان الالم قد يولد اللذة.

أفلح نثري في سحر استاذتي. ادع الاماكن الاخيرة لأفوز بأولها تماماً.

يكن هذا التحول عابراً. فقد تغيرت. تشهد علي ذلك علاماتي في الفرنسية، لكن التحول انما حصل في أعمق أعماقي، هناك حيث يختلط الماضي بالحاضر، الالم باللذة، الاحلام بالحياة، الخوف بالطمأنينة. ولابد لي من سنوات ايضاً حتى أوتي الجرأة على الانتقال من الاشكال المفروضة الى الاشكال الحرة. فليست لدي أية اشارة الى ميل مبكر فما من يوميات خاصة في زمن الجلجلة الغرامية، او قصيدة لحظة المداعبات الأولى.

اما (موريس) فقد أخذنا نفقد رؤية بعضنا شيئا فشيئاً. اذهب الى معهد زقاق (جرنط)، ويستمر في الدوام في مدرسة زقاق (الكولاتات) كانت الثانوية للاغنياء، المعهد للمتوسطين، شهادة الدراسة للفقراء، لايسمح لي باللعب مع رعاع الحي، ولعل رغبتي في ذلك خفت، فالحياة تفصل الذين يتحابون فصلا رفيقاً دون إحداث ضجة.

كان هذا هو العهد الوحيد الذي ابتعدت فيه عن الجنس الذكر. اتخذت بغتة مسافاتي، بعد أن كنت أرتاح دائما الى صحبة الصبية. لا تفلح القمصان المدرسة قط في ستر تكور صديقاتي، وبدل الاكتئاب لذلك، أخذ بعضهن يعتنين بهندامين. أعجب لتحولهن ويصعب فهم رضاهن عن ذلك. لا أحس بأنني على عجلة لترك عالم الطفولة وأحمد القدر الذي ينجيني من هذه التحولات الغريبة.

أحسب صدروهن الضخمة نقمة، لا زينة، والنفع الذي يحمله الى الجنس الآخر ضلالا. أراقبهن بصمت، أنهن يقعن. الواحدة تلو الاخرى في شرك سن البلوغ ومظاهره الكاذبة. ولا تفلت أية واحدة ، حتى اللائي أعجب بهن أكثر من

غيرهن. كلهن يردن هجر الطفولة بأسرع مايمكن. يخن، واحدة فواحدة. ذا يوم شبهة أحمر شفاه في غد أول زوج جوارب نسائية. وأظل بجوارب قصيرة وتنورات مكسرة. وماتلبث المواعيد الغرامية ان تعلن. ويتهامسن بأسرار لا أريد سماعها البتة. تتغير الاجسام والعواطف وحب الاطلاع ولا تفزع اولئك الطافرات من هذا التغير بل الأنكى أنهن يستحثنه.

أصير شرسة. أنكر ماكنت عليه قبل بضع سنوات. ألم أختر عندئذ ألعاب الرعاع؟ ألم أتبادل الرسائل الغرامية مع صبية لقيتهم في صدفة العطلات، قبل رفيقات صفي بزمن طويل جداً؟ لقد حلمت بالحب، في وقت لم تكن فيه صديقاتي قد فكرن به بعد. تخيلت متع الكبار كلماتهم حركاتهم، مشاركتهم. لم يدنسني ذلك. بل أنني لو جهلت معظم هذه الاسرار، فانني سأكتشفها فيما بعد دون ريب. وابتهج بذلك الى حد الظن بأنني الوحيدة التي تتنبأ باهمية الكشوف المقبلة. وأحسب أنني استعد لذلك، راغبة في اختبار ساعتي حتى لا أتلقى الشيء الذي يفرض علي.

لا أطيق القهر في مجال العواطف أو مجال الاحساس. لا أريد ان المس. لا أريد ان أرغم حسبي ما اخضعني له مرضي من أطباء وضروب استقصاء. تبت تلك الأيدي الجساسة تبت تلك الاشعة التي تعبر دون تخليف أي أثر عن مرورها، أي ذكرى غير ذكرى طبيعتها الخفية. تبت تلك النظرات التي تجعلكم حبسا. تبت تلك الشرارة في قعر العينين التي تخيفكم وتوقف صيحاتكم. تبت تلك اللمسات الملتقاة في سذاجتي وفطرتي في نعومة أظفاري. حسبي ان أقبل بصمت مالا أفقه.

عرفت الخضوع، بين الثامنة والعاشرة من عمري، ولا أريد رؤيته يستأنف. كان أبواي يرسلانني، في ذلك العمر، كل عام لقضاء شهر تموز في الريف، على أمل إصلاح صحتي. لايرتابان في أعراف هذه الاقامة التي يحولها الصيف الى مستعمرة عطلة. ولا أدري لأي حياء ولا أقول لهما شيئاً في هذا.

كان في المؤسسة، في هذا الريف الليوني الجدير بالاسترى[1]، كل مايوحي بالطمأنينة. كان يديرها قس عجوز لطيف الوجه. بيد أنه يسيطر على هذه المكنة انضباط حديدي. فيعاقب عن كل خطأ عقاباً وحشياً. لاتفه شاردة عقاب. توجه إلينا (نادرة) الضخمة، التي تقوم بمهمة محاسبة وعريفة[2]، بكنها الواسع تصحيحات تجعل أفخاذنا مخططة وبنفسجية. وأتهمها بالتشبث تشبثاً خاصاً بفخذي.

كان في الحديقة أجهزة رياضية حرم علينا استعمالها، وأود لعب الالعاب البهلوانية خلسة فأصعد الى أعلى سلم الحبال، وانقلب الى الخلف، راصة بالدرجة الاخيرة بين ركبتي، تاركة جسمي ينوس فوق الفراغ. في هذا الوضع باغتتني (نادرة) الضخمة ذات يوم. جعلتها رؤيتها، من الأعلى وبالمقلوب، أرهب، بوقفتها بأسفل السلم، وقبضتاها الى خاصريتها، منفرجة الساقين، تنوي التقاطي عند النزول. يدل على ذلك وضعها وسبابها. من البديهي ان وضعها كان أروح من وضعي. ومع ذلك ظللت انظر إليها طويلاً ، ورأسي الى اسفل – كانت المشاغبات الآخريات قد هرعن ليصنعن حول المعلمة دائرة كبيرة. ورغم اسر المشهد، فانهن لم يقلن من حذرهن وأحجمن عن الافراط في الاقتراب من (نادرة) الضخمة. فقد يتلقين صفعة في أية لحظة، وخير لهن البقاء خارج مداها.

أما أنا، فاتشبث بفنني تشبث اليائسة. بيد أنني بدأت أفهم أن الزمن

---

١) الاسترى: رواية ريفية (لانوري درفي) المولود في (مرسيلية) ١٥٦٧ – ١٦٢٥ تتألف الرواية من ثلاثة أقسام ١٦٠٧ – ١٦١٩ اتمتها كاتبة بارو ١٦٢٧ – ١٦٢٨ حيث يجد القارىء التهذيب اللطيف الذي نفخ روحه في المجتمع العزيز للنصف الاول من القرن السابع عشر. تجري الوقائع في القرن السابع، على ضفاف (النيون) وهو جدول صغير في فوريه و تروي حب (كلادون) و (استرى) – المترجم.

٢) في المانية الذي يسخر السجناء الخدمة، وأصبحت تعني في الفرنسية العامية المعتقل الذي كلفه النازيون تسخير رفاقه الخدمة في المعتقل والعمل خارجه وقد استعملت الكاتبة هذه الكلمة لغيظها من هذه المحاسبة التي تعذب الاطفال. ولم أجد أنسب من كلمة عريفة. لان السلطة تقيم في السجون العربية في كل مهجع عريفا من المساجين – المترجم.

يلعب ضدي وأنني سوف أغلب بالمكابرة غلبة فظيعة. ما العمل؟ لن أقضي حياتي معزولة على هذا الارتفاع مثل اولئك النساك على الأعمدة الذين يمجدهم السيد القس ايما تمجيد. اقرر أخيراً النزول بيد ان (نادرة) الضخمة لاتدع قدمي تطأ الأرض. تمسكني وتأخذني الى وكرها بعيدا عن الانظار لتستل لا أدري من أين ضمة قراص تجلدني بها دون التقاط أنفاسها. فيصبح خداها أحمرين وفخذاي قرمزيين.

تستأنف المعاملة السيئة كل يوم. ويكون العقاب جماعياً أحياناً، فنركع في باحة الفرصة، ساعة تحت أوج الشمس، والأيدي معقودة فوق الرؤس. كان الخوف لدرجة أننا لانتكلم فيما بيننا عن سوء معاملتها. تمثل (نادرة) الضخمة الشر، بينما السيد القس الخير، فيتلو القداس. ويسرد حياة القديسين ويوزع ابتسامات وسكاكر. فلانظنه مسؤولاً عن شيء من العقاب الذي يصيبنا. كانت نظرته طيبة حتى أننا لانشاء اتعاسه بشكوانا.

يحدث لي، مساء، حين نومنا في المهجع الكبير، ان تقترب المدربة من سريري لتقول لي ان علي الذهاب الى مكتب السيد القس يرحب بي السيد القس بابتسامته المطمئنة ويومي إلي، من قاع اريكته المكسوة بجلد رث عتيق، أن اجلس على ركبتيه.

كنت في الثامنة من عمري ولم أعان في طاعته ضيقاً أو تردداً. كان صوته لطيفا أيما لطف نسيت أنه يمكن وجود مثل هذا اللطف. يخرج سكاكر من جيبه ويقدمها الي. تأثرت بهذا القدر من الكرم. لكن حنان صوته هو الذي يفتنني. يحدثني طويلاً وجنتي تميل الى نسيج جبته اللماع. يقول لي عندئذ أن أتعرى حتى يحسن العناية بي. انصاع. هبه طبيبا وقد تعودت طاعة الاطباء. والحق ان الغرفة المصاقبة لمكتبه غاصة بكل اللوازم الطبية ويجعلني اتمدد فيها على سرير ضيق وعالي القوائم مثلما رأيت قدراً منه في المشافي.

يتحقق من نظافة أذني،، يضع مرهما على البثور أو على الآثار التي تركتها الضربات. وأخيراً يأخذ بمساعدة ملقط معدني طويل قطعة قطن. ويفرج

فخذي انفراجاً خفيفاً ليمرر القطن في تجاعيد سوأتي. يقول انه لابد من السهر علي نظافة ذلك المكان. ويروح ويعود بالقطن، ليبرهن لي عن ذلك برهاناً أكيداً. ثم يأخذ، بملقط، دائماً، قطعة قطن جديدة ويستأنف ترويضه. لابد أنني قذرة جداً لانه يهلك خمس أو ست قطع على الاقل كل جلسة. انتهي الى أن ألفى الوقت طويلاً. أبرد وأنعس. ومع ذلك فأنني أخضع الى هذا العلاج دون تردد، بيد أنني خجول بأن تصبح قذارتي سبب تعذيب ضخم ايما ضخامة. وعندما أعود، يتمنى لي ليلة سعيدة ويضع على جبهتي يدا مباركة. لا أدري فيما إذا كان يوقع ضرب الطب هذا على بنيات آخريات، أعرف فقط أن دوري غالباً مايعود. يبدو لي كل هذا سخيفاً هنا أمر لا أفهمه. كنت خاطئة لمجرد جهلي. تفر مني أسباب البالغين ولكن لابد من وجوها كل شيء يحلمني على الاعتقاد بذنبي. القداسات اليومية، مناخ التفكير، عنف العقاب السجل الذي ينبغي على كل منا إمساكه عن أفعالها الخيرة وأفكارها الشريرة. أفكار شريرة؟ ماذا يمكن أن يعني هذا بالضبط؟ يصادف ان اخترع افكاراً تعتبر شريرة لا ألبث ان أبوح بها الى القس الطبيب. لكن فكري يظل مشغولا خاصة بعد الايام التي تفصلني عن تسريحي، وأخيراً يأتي الصباح السعيد لاطلاق سراحي، أرى، وأنا متمركزة في الفسحة، أبي من بعيد جداً يهبط الربوة. يهم بجلبي كما لو ان السيد القس و (نادرته) الضخمة لم يوجدا ابداً.

يدخل رئيس دير آخر حياتي، بعد أربع سنوات، كان، وهو الضخم والرياضي بل والجميل والفتي، قس معهد الفتيات. أراعي أدنى آرائه، وغالباً ما أبدأ جملي متحمسة.

– : قال لي الاب كذا.. الى حد ان أبي، اوقف اندفاعي ذات يوم، وقد طفح كيلي:

– قال لي الاب كذا..

فقاطعني:

– ليس لك غير أب واحد هو أنا.

اهم بحضور اول اجتماع ديني واحب السيرة في جميع صورها، المقدسة أو غير المقدسة. ونظرا الى علاماتي، اصطفاني السيد القس الشاب لاقرأ (الانجيل) يوم الاحتفال. تأثرت بهذا الشرف. سوف تغص كنيسة (سان مارتن ديناي) بالعديد من رجال الدين، حوالي مئة من الرجال واسرهم، وسأكون النجمة في هذا اليوم المبارك عند الجميع. فهمل المعهد قبل الحدث العظيم باسبوع، للاعتزال. اعد جسدي وروحي لاستقبال (الرب)، ولا انسى ان اطلب (منه) في صلواتي، ان يحفظني من الشقيقة في ذلك اليوم. لست جديرة، يا (مولاي)، باستقبالكم، ولكن قولوا كلاما وحسب فتبرأ نفسي. كنت على نقيض صديقاتي، قلما افكر بالهدايا التي تهدى الي. انتظر ما هو أكثر. انتظر وليمة صوفية والهية. ارغب فيها. ويتداعى الحب والجوع، عندي، تداعيا طبيعيا. اعلم انه ما ان يرغب المرء حتى ينقلب الخبز لحما دون أية صعوبة. اريد البقاء جائعة وبريئة مثل آكل لحوم بشر. اشعر انني خفيفة وحريصة حتى أحسبني، في موكب عذراوات (بالي)[1]، قادرة على الرقص على البحر.

نقضي نهارنا، اسبوع الاعتزال هذا بطوله، في حرم (سان مارتن ديناي)، في اتمام معارفنا الدينية والصلاة واللعب بالكرة في الباحة الصغيرة. طلب مني السيد القس الشاب، بعد ظهر ذات يوم، ان آتي للانضمام اليه في مسكنه. لا بد لي من تعلم تقويم صوتي لنقل كلام (الانجبل) الى عمق كنيسة سوف يرد جمهورها كل صوت اجش. ارى، منذ الدخول،انه رفع نظارتيه وهكذا لم يرضني وجهه كثيرا. لا ريب في أنه يفاجئني. لا يلبث ان يمد الي كتاب القداس. تشير علامة الى الصفحة التي علي تلاوتها. يقول لي عندئذ ان اجلس على ركبتيه. انه جنون القسس، قطعا، سواء الشباب ام العجائز.. وانصاع مرة اخرى، لا أدري بأي منعكس بدائي. ربي، جذبوني القسس، ولكن لتتحقق مشيئتكم.. استعد لتقوية صوتي. أريده على قدر الكنيسة وقناعتي. نصحني على النقيض، من ذلك ألا أدع يسمع قبل كل شيء غير همهمه حتى احس الالفة مع الكتب المقدسة. وبعد ذلك فقط، أعطي الكلمات مزيدا من القوة.

(١) جزيرة اندنوسية، يفصلها مضيق بالي عن جاوة - المترجم.

أبدأ اذن بهمس يتلاءم مع ضيق الغرفة وخفوت نورها. أتساءل منصرفة الى التلاوة، لماذا يجعلني أقرأ هذا النص في هذا المكان الضيق، بينما صمم على المشي طول البهو وحتى آخر دعامة؟ اطلق الكلمات. يقول: مهلا، مهلا، ولا أدري قط فيما اذا كنت أفرط في صرعة الكلام أم في قوته. ثم يزلق يده في شعري واعاني ضيقا ما في متابعة الكلام. واريد ابعاد يده، بحركة من رأسي، دون أن انقطع، لكنها تعود لتحط علي، مثل حشرات الصيف تلك، ولا اجرؤ على العودة الى ابعادها. وتستغل ذلك لتدفن في أعماق فروة رأسي وتنزلق، ملحة، في فجوة قذالي في الوقت الذي الفظ فيه بصوت جعله الهيجان حادا: «قلت لكم هذه الامور، كيلا تفضحوا. سوف يطردونكم من الكنس..»

لم يكن هذا ممكنا. حسبي انصياعا. حسبي خضوعا. انتصب بغتة، يكاد كتاب القداس ينسحق على البلاط، محررا من صفحاته حزمة صور تقية. اجرؤ على تهجئة «لا تمسوني» في غضب يجعل ساقي ترتعشان، واخرج لانضم الى صديقاتي.

أفهم كل شيء: رغبة في حفظي بعد درس الدين ودعواته لي للاعتراف في مسكنه - وسعادته بطلبي غريزيا دائما من صديقة مرافقتي - وبسمات رفيقاتي الاكبر مني سنا المصطنعة، اللواتي امتنعن امتناعا تاما عن تحذيري من الخطر، ونظرته، نظرته الي بهذا اللطف الندي والضارع. اي قدر يؤدي بي الى اللقاء تلك النظرات اينما كان؟ لماذا تؤثر الوقوع علي؟ لم هذه الجاذبية؟ كان في قعر عينيه التوسل، الالحاح الذي سعى الى التخلي عنه. لا أريد هؤلاء السائلين قط بل وأنبذ البنية التي تقضي كل وقت الفرصة في ترتيب حقيبتي، في سبيل ان أشكرها شكرا بسيطا.

لعبت الكرة وقتا طويلا مع صديقاتي بعد فراري من مسكن القس، ثم اتى يشترك في لعبنا. وقذفت الكرة نحوه بكل قواي، في لحظة ما. دون أن أريد ذلك حقا. وتلقاها في ملء وجهه وكسرت نظارتاه. اصبح خذاه احمرين تماما. حررني الفرح. اتلو الانجيل في قسم رجال الدين في كنيسة (سان مارتن

ديناي)، بعد يومين. قضيت وقتا طويلا في الغفران لكم، ايها القس. كنتم اول من وضع يده علي. ولو لم تقوموا بذلك، لتكفل به رجال آخرون دون ريب.

لم توجد الصفوف المختلطة، في ذلك الوقت، وكنتم الممثلين الوحيدين للجنس الاخر للاقتراب منا. كنتم تستغلون التفوق الذي تمارسونه فينا. احسن فهم عزلتكم، في الوقت الحاضر. بل انني أتساءل، اذ ارى الاطفال يلعبون على الشواطىء، كيف كف عن الاغتصاب. يا لهن من اغراء تلك البنيات نحيلات الاشكال، طويلات العضلات، صلبتها، حلوات الرائحة. يزهرن الرمال بخطواتهن المجنحة لانهن يختبئن داخل اجسامهن نارا أحر من هذه التي تداعب اقدامهن. يوفقن الطبيعي والتحدي، في كل وضع من أوضاعهم. كيف سوف تستطعن مقاومة ذلك؟ الصيف فصل البنيات.

ظللت، بسببكم، لا أطيق أن أمس قط، على مدى سنوات. بيد أنكم لم تفلحوا في اخماد الجذوة التي في. تتدفق أحيانا، عنيفة بعد تثبيط نشاطها. اذكر هذا الانفجار فرحا بغتة الذي لعلكم سوف تصنفونه في فئة؟ الفسق.

امتطي، في العودة من المعهد، على ضفاف (الرون) السيارة الحافلة ٣٢. غالبا ما كان هناك في ليون، في سنوات الخمسينات تلك، ضباب، وكان، في بعض اصبوحات الشتاء، كثيفا، حتى انه ينبغي على المراقب السير امام الحافلة ملوحا براية حمراء ليفتح الطريق لزميله الذي خلف المقود. أما في الصيف، فان المسير يصبح حقليا وقد ابقى حتى آخر الخط تسليا. يحمل هذا الحي في آخر العالم اسما يعجبني: الولايات المتحدة. فأنتزه عشوائيا في تماثل أزقته المثمنة الزوايا قبل العودة الى الـ ٣٢. في اتجاهه العكسي.

أتألم من العودة الى البيت عندما تقترب العطلة. ترتج المدينة برمتها، في الجو الخانق، مثل السراب وتحطم (ليون)، القارية، أرقام الحرارة القياسية. سوف أريد عبور بغازات اخرى أثر ابطالي. يعود الهواء غير صالح للتنفس. احبس نفسي على امل الخروج ذات يوم. كان العالم واسعا وينتظرني.

امتطيت بعد ظهرذات يوم – اذ كانت الملابس تلصق بالجلد، – الـ ٣٢.

مع صديقة في المعهد كانت تمتاز كذلك بالسكن في زقاق (الكولاتات) وكان ابواها غائبان وقد ذهبنا الى منزلها. وما لبثنا ان فتحن نافذة المطبخ لندع الحرارة تدخل. ثم ادرنا ازرار اللاسلكي. كان جهازا ضخما واسع الخدين يبدو لنا خشبة المعرق ثميناً. صنعت الموسيقا الاولى شأننا. رفع الصوت الى اقصاه، رغم قعقعة التشويش. خلعنا عندئذ ملابسنا، محشورتين في جهاز معقد من تنورتين وشلحتين افسدتهما عجلتنا. وأخيرا دفعنا، عاريتين، الطاولة التي تضايق تحركنا نحو الجدار وبدأ رقصنا.

لا يشبه شيئا معروفا. ترسم حركاتنا دائرة في المطبخ الواسع. تضرب أطرافنا المتحررة من عقالها الهواء حسب ايقاع كأنه كوبي. يقعقع التشويش حتى ليفجر الجهاز ويلتوي عمودانا الفقريان، عند كل رشقة، كأن الصاعقة حولتهما الى مشعل حي.

ننزو تارة الواحدة على بعد متر خلف الاخرى، متبعتين اثر رقصتنا الدائري. وتارة نثبت ضامتي القدمين، باسطتي العجز، منتصبتي رأس النهد الذي يكاد يتفتح. نضرب راحاتنا ضربا موزونا وتضرب كعوبنا البلاط. كأن حقيبتينا، المهملتين في ركن المطبخ، من آثار مدينة اخرى.

لا أدري كم من الزمن انتشينا بهذه الايقاعات التي اتفق معها جسمنا. فحافظ على الزمن الموسيقي، بين قطعتين، فتضرب يدنا الاخرى في انتظار الموجة القادمة. وتأتي باعصارها المخطط ونستعجل لقاءها رافعتي الاذرع، باسطتي الجسم كيلا نضيع خطوة.

الذي يبدو لي فريدا، هو انصرافنا الى هذا الاحتفال الشيطاني انصرافا غريزيا، دون ان تاخذ احدانا أو الاخرى زمام المبادرة اليه. بل انه لم يكن لنا في ذلك الزمن مثل راقصي الروك. لم يكن الرقص قد أصبح فرديا وشاقا. هذه السر برد في حر الصيف الليوني، جسمنا، جسمنا وحده الذي اخترعها.

هل اصحانا التعب في لحظة ما؟ ام هو المذياع الذي كف عن تغذية هذياننا؟ لا بد من تجفيف العرق وارتداء الملابس من جديد. تركنا بعضنا دون ترك وقت للوادع وحفظت كل منا سر جنونها.

تنتظرني امي، امام بيتي. اتت للقائي وما لبثت ان شعرت أنها غضبى. كانت ساقاي ثقيلتان بارهاق لطيف. وتنغرس قدماي في الارض، كل خطوة. نسيت الساعة وكل وظائفي. نسيت ان علي ان اكون اول الواصلين الى الدار، بما انني حاملة المفتاح، تصبر امي منذ ساعة ونيف، و تعاني هذه التجربة الجديدة معاناة سيئة، اذ أن عملها يتعبها. بيد انها تفلح في السيطرة، بضع لحظات، على حمى غضبها. وتتريث حتى نصبح في منجاة من النظرات لتضربني على ردئي ضربة تذكارية وسرعان ما تندم.

عزلة لا حدود لها. هكذا كانت طفولتي، وخاصة مراهقتي. وأرى في الوقت الحاضر عزلتها، لكنني الان احيا حياة حياة مفرطة في التركيز حتى لأحمل احوالي على اسماء. اتوهم، في مفتخرة ان الاخرين يشبهونني. الم يكن كل منهم قلعة مغلقة على سرها؟

أذكر إحدى أخطائي في الإملاء. ارتكب كثيرا منها، واذا حفظت ذاكرتي هذه، فلا ريب في أنها لا تفضح جهلي وحسب. كتبت في املاء احدى استاذاتي، عمن لا أدري من هو طبعا: «يفكر في داخله القوي». يبدو لي بديهيا ان ذاك القوي لا يجوز ان يكون غير اشغال مدعومة دعما متينا. اعتني برفع الجسر المتحرك ووضع قبالته على المراقب. الا ينبغي الدفاع عن سره ضد الفرق المحاصرة؟

انغلقت على نفسي، منذ ان كف الاطباء عن اغتصاب اراضي. مما لا يمنعني من التمتع بنسمة هواء حار أو رائحة مالحة على شاطيء (نيول على البحر) أو لحم محار مهشم بين لساني وسقف حلقي. احب قيلولة الصيف في دار عمتي. أنام فيه والابواب والنوافذ، في عبق العشب الحار ضئيلا. ليس هناك في داخل قوى. اليس هناك عالم خارجي قط يجري الهواء المفرط في الحرارة جريانا حرا. ما من رغبات قط. ما من قهر. لم يعد هناك قط انا والآخرون. ما من خط افق قط. ينشر النور استمراره اينما كان. استحم به دون نهاية. كان لطيفا وحلوا حلاوة خفيفة. اكف عن البقاء خبيصة، في هذه العجينة. دسمة،

قيلولة الطفولة. لم اعرف خيرا منها غير مداعبات امي. ها قد بلغت العاشرة من العمر وما تزال تجلسني على ركبيتها. تمسح يداها ذراعي، ساقي، وتدهش امي كل مرة، عندما تصل الى الفخدين «غريب امر جلدك كم هو رخوا، هنا، في الداخل» تمضي يداها من ركبتي حتى حاشية سروالي ادعها تفعل وذراعي يطوق عنقها. اسمع ابي مغيظا او متظاهرا بالغيظ: «الم تنتهيا حتى الان، انتما الاثنتين؟» فنضحك ونستمر في تناجينا. يدا امي خارقتان. غالبا ما يقال لها يدي عازفة معزف اذ ان اصابعها نحيلة وطويلة وأظافرها مربعة تماما. اما انا، فاوثر تشبيه اظافرها باظافر السيدة في الصور المقدسة. بيض ودقيقة، ذوات الهلال الصغير الزهر عند أطراف الاصابع. وكأنه ليس لها وظيفة غير نزع أوراق الازهار. ومع ذلك فالحق انه ليس عند امي وقت فراغ وقلما يتاح لها الوقت للعناية بها. تبدو لي اظافري تافهة، بالقياس الى تلك الروعة، فاتعود لتهامها، ولن افلح ابدا في التخلص من ذلك تخلصا تاما.

لست مصابة بهذه اللوثة المنشرة انتشارا لا بأس به والقائمة على قضم الاظافر. هناك من يسميها اكل الاظافر، لكن الامر لا يظل اقل سخفا. لن اصيب اظافري ابدا. لا أحب صلابتها أو طعمها. بل انني اتمتع باطراف الجلد الصغيرة تلك اسلخها قبل كل شيء بمساعدة اظافري - فعلي اذن حفظها بحالة جيدة حتى تستطيع الارضاء في هذا الاستعمال - ثم أعضها بشره. احب نكهة جسد لحمتي. عندما تجرد أطراف اصابعي من أقرب الطبقات الى السطح، لا أستطيع الاحجام عن شهوة عض أقوى، أعمق قليلا، ويتدفق الدم وسط المجزرة. أعرف تضاريس يدي معرفة تامة. فاستطيع ان أحدد بدقة قصوى أي أصبع ملتئمة التئاما جديدا سوف تنزف لاول اصابة، واية اخرى لم تمس تقريبا سوف تقاوم هجمات محسوبة. هناك مناطق مرهفة يبدو أنها لم تتعدب أبدا وأخرى مضرسة وورمة تصبح مؤلمة عند ادنى تماس. غالبا ما يشبه جلد اصابعي قشرة البطاطا الجديدة. عندما ينبغي على عصر ليمونة لعمل صلصة السلطة، يقضم العصير اصابعي حتى العظم. وقد اسعى لاقدر كم كيلو آكل من لحمي

اذا عشت حتى المئة سنة، لانني، بكل بداهة، سوف أجد غذائي في أنا، ما بقي في حياتي نفس. ليس الحساب يسيرا، وقد أقدر، في وقفة عز مشروعة تماما، ان وزن لحمي المزدرد طول حياتي هو خمسون أو ستون كيلو.

لا تدوم القيلولة غير فصل، والمداعبات غير لحظة . واتحصن، بقية الوقت، حصص الداخلي.لست، في الظاهر عاصية، او صاحبة نزوات. أعيش، في الواقع، في مكان آخر، ليس في القمر، ولكن في قمري. ما هو فلكه؟ ما هي فترة ثورته؟ نسيتها ولا ريب في أنني لم ادر ابدا الى اي كوكب أو أية أحلام يجرني خيالي. بيد انني أعي التضليل، وكلما انصعت للاوامر انصياعا صارما، كلما ظننت انني أخفي هويتي الحقيقية. استطيع تنقية العدس أو تقشير اللوبياء أو نزع قشر الكستناء. دون ان يقال شيء في عملي. الواقع انني اخدع عالمي لانني اتظاهر بانني تلك البنية الجادة التي تدبر المنزل. العب دورا احسن به الاستعداد لما ينتظرني والذي اجهله كله. تعزلني رغبات غامضة حتى انه لا أعبر عنها. تطوقني بهالة تحميني ويفصلني عن الآخرين.

يعظم انعزالي، على قدر مهمتي. وخير ما أشعر بتصنع سلوكي عندما ينبغي علي ملء ابريق الماء المخصص للمرحاض تحت صنبور المطبخ. الوذ طوعا، بالمرحاض. اختبيء فيه لابكي. لا مناص للمتضرعين للبث الاذاعي «اسطوانة المستمعين» من طلب الاستماع الى أغنيتهم المفضلة: الورود البيض. ما ان يعلن ذلك، حتى انسحب لاحبس نفسي في المرحاض. اعلم انني مرة اخرى ساصبح عاجزة عن حبس دموعي وسأنقلب عند أول لازمة الى نبع. كم اتمتع بطمأنينة بحساسيتي المفرطة. ادع بكائي يجري ممتعا، في منجاة من النظرات والسخرية.

«اليوم الاحد، خذي يا امي الجملية هاك ورودا بيضا، يا من تحببينها حبا..»

اختبيء أيضا لاقرأ. والتهم الكتب، لانني مغالية في كل شيء. يقال لي: «أنت فاقدة صوابك» تأتي الملاحظة دائما في السر لحظة في السرد. كيف

اجتث من هواي؟ لن تستطيع اية قوة في العالم ثنيي عن اللعب. هذه الكلمات البسيطة: «انت فاقدة صوابك» تفتح في جرحا. سوف يصبح هناك من بعد، بعد ذلك بكثير، نداء الهاتف في بعض الايام، بعض الليالي، الذي سوف تجرح حدته مرح الحب. ليتني لا اسمع. صماء، اريد ان اصبح صماء عمن يجرؤ على الاخلال بلذتي. اخفي كتابي تحت دثارى واوصد على نفسي باب المرحاض.

الحق ان المطالعة تخل بفكري وانني اسيء الانتقال بين ما أقرأ وما احيا. يبلغ ظمئي الى المطالعة الى القدر الذي يجعلني غيابها ضاربة.

بحثت، طول طفولتي، عن صديقة، فلم أجدها البتة. توجعت للصداقة كما يتوجع الآخرون من الحب، لغيابها أكثر من جراحها.

تنقلت من بنية الى بنية تنقل الفراشة، دون أن أفلح في ان احط. لا تؤدي بي طبيعتي الى الخيانة. وددت لو اصب جوهري في كائن واحد. احلم بهذه الصلة بالحياة وبالموت التي تشهد عليها كتبي أحيانا. احلم بان أسيل من قبضتي دماً سرعان ما اقدمه الى اختي، صورتي الاخرى، ان آخذ دمها، ان امزج دمانا الى الابد. افرط في الطلب واحسب انني لن أحصل على شيء. ليس فردوسي من السكر المكرر، انه يقوم في برزخ بين كائنين، هناك حيث تمتزج الضحكات بالبكاء والكلمات. انظر الى (ملتير)[1] تقرن ماء (الرون) بماء (سؤون)[2].

أقرأ في (نوتردام ديزاج)، أثناء وعظ الخوري، صباح الاحد، قداس الزواج، يضايقني قليلا خضوع المرأة الى زوجها الذي تشبعه الرسالة الرسولية، لكنني لا أريد الاحتفاظ من النصوص المقدسة الا بذاك الوعد بالوحدة التامة والقطعية التي ادعو لها ما وسعني الدعاء. كذلك أضل اذ أنسب الى الصداقة ما يستطيع الحب وحده تقديمه لي. فأبصر عندئذ في المستقبل القريب أحد تلك الفراديس التي سوف يجد فيها كل فردوسه بطريقة عجيبة. لن يكون فيه نزاع او عزلة او منبوذون. تنتظم الاشياء، في فكري، دون صعوبة، مثلما

---

(١) منشآت آلية في دائرة (ليون) في بلدة (الرون) - المترجم.

(٢) نهر في شرق فرنسة، ينشأ في محافظة (الفوج)، ويرفد (الرون) في (ليون) - المترجم.

تصفق الناظرة العامة في المعهد لتقول: «هيا، يا آنساتي، رتلا ثنائيا» سوف نصبح في ذلك الفردوس، ثنائيات مدى الحياة لان اللقاء لن يدين للصدفة بشيء. سوف تحملنا قوتان توأمتان، انا و (الاخر)، على التعارف تعارفا لا مناص منه، لا أفكر في نصف البرتقالة الشهير. لم أومن ابدا بانه يمكن لكائنين مشطورين الاتحاد، وصنع كائن كامل، بإعادة لصق القطعتين المشتتتين. بل أرى فردين يأويان الى بعضهما مثل ثمرتين متشابهتين وتوأمتين في قشرة واحدة.

وفي الجملة، يصبح حصني الداخلي بمعجزة الحب قلعة ذات محلين. اعيد انتاج ما أحياه وحدي، لاستعمال الثنائي. بيد انه كان لدى شعور بأنه سوف يربح في الثنائي بالحركة ولا ترضيني قط صورة العمل المحصن، المعلق بصخرته دائما. أفضل الفقاعة عليه. سوف نستطيع، مثيلي وانا، في هذا المسكن الشفاف والكتيم، الجولان في العالم، رؤيته، الاحساس به، دون ان يهم احد بالتطفل على عالمنا ابدا. سوف يصبح ترك العدد يتسلل ارتكاب فعل خيانة. اني ذات يوم، في مسبح (جرلند)، نزعت ساعتي قبل الغطس. وعندما خرجت من الماء، كان تحت مينائها شبه بخار وقطيرة معلقة. بدا لي جليا ان الخيانة في الحب تشبه ذلك: مباغتة قطيرة ماء دقيقة. اما انا، فأحلم بحب كتيم.

كنت على يقين من انني سأجده ذات يوم، جميلا، كاملا، دون حدود. يؤدي بي هذا الامل الى احتفاء ثرثرة الصف وبوح باحة الفرصة. لا شك انني اشترك في كل الالعاب، كل المبادلات، كل الضحكات، ولكن ما ان اعود الى فتح عيني حتى تزداد عزلتي مع رغبتي الظميء. أخطيء الان بفرط التكبر، لو كانت لي صديقة، حقيقية، لوددت الا يكون لها غنى عني ولا لي عنها غنى. ليس هناك شيء من هذا، لم تجعلني اية واحدة اعتقد انه لا بديلة لي. فألجأ الى كتبي. أليست الشخصيات فريدة، كل على نحوها؟ وانتظر الزمن المبارك الذي أصبح فيه لا نظير لي في عين رجل، ذلك هو الحب: الدخول في مملكة ما لا يقبل المقارنة. المرء ينسى فيه كل صفاته، يكف عن كونه جميلا أو قبيحا، أسمر أو أشقر، قصيرا أو طويلا، ذكيا أو غبيا. يصبح المرء للاخر الذي لا نظير له فقط.

جعل سرجوبي صورتي باهته. لا أريد التفكير قط بهذا الشر الذي لم يكن شرا، بهذه الطفلة المشوهة التي لم تكن كذلك، بهذا الموت المحاذي في الماضي والذي اعطاني طعم الحياة. لا أدري قط من كنت، بل أكاد لا أدري ماذا اشبه، لا أطيق تصويري بالالة، ان يصورني ابي تصويرا زيتيا، ان تقال الاستعارة في مظهري، في مشيتي، في وجهي، في جسمي، أرى الفتيات الصغيرات يدعن الطفولة دون ندم ويبدين اولى علامات الغنج. فهذا هو اذن سن البلوغ: احمر الشفاه والجوارب النسائية والمرآة، اقترح علي، انا التي تحلم بأن تصبر بلا نظير، الانخرط في النسق.

أرفض. فجدارتي قليلة لذلك، حتى ان امي تهتم لاجلي بوضعي، بمظهري. فكانت هي الوحيدة التي اسعى الى كسب اطرائها. علي مكافأة عذابها القديم. حسبها ما جرحها حرماني، فلا أريد الامعان في جرحها. كان ديني ان ادعها تختار ما يرضيها لا لباسي، دون معارضتها بمقاومة. فاذا اطريت، عجبت قبل كل شيء كيف تعلق اهمية على تفاصيل، واغتبط من ثم لامي. تشكل العلامات الجيدة والمرحى التي يجلبها لي احيانا وجهي عناصر مقايضة. اقدمها الى أبوي كي يبادلاني بها عطاء من حبهما. لا اظن ان الحب قد يخرج من نفسه، فلا بد من استحقاقة.

قلما انظر الى نفسي في المرايا. اتحقق فيها فقط بعد زينتي ان كل شيء في محله، دون متعة أو نفور. لعل عيني لا تستطيعان التطابق على وجهي الذي لا يتبين، كأنه غريب عني.

علمتني ملاحظات الاخرين معرفة نفسي. هناك كانت ارض التخييم تلك على ضفاف بحيرة (أنّسي)[١] حيث نخوض في الوحل تحت مطر منهمر، سميناها (ديان بين فو)[٢].

---

(١) جنوب شرق باريز ـ المترجم.

(٢) سهل صغير شمال فيتنام. كان مسرح قتال عنيف انتهى في ٧ آيار ١٩٥٤ بانتصار الفيتناميين على قوى الاحتلال الفرنسية ـ المترجم.

كانت جارتان اختان في حوالي العشرين من العمر، تعملان مزينتين. ازورهما في خيمتهما، اثناء الوابل المنهمر، وتحدثاني عن افلامهما المفضلة. تقول لي احداهما، ذات يوم، كافة عن سرد مشهد حب في على قدر ما يصبح هناك رجال، بلجهة حماسية:

«انت، كم ستصبحين جميلة» اهتمت بألا تتصور ظفري الا في المستقبل. اما الساعة فانني اتمحض في سراويل قصيرة فضفاضة تضرب فخذي ضربا رقيقا، واتبع بنظري حذائي، حيرى. يشرع الموج الذي يغمر كل المخيم شيئا فشيئا بحملهما، وهما موضوعان على دف خشبي.

لم اجسر على سؤال الاختين عما تعنيه ملاحظتهما. ثم فاجأتهما بعد بضعة أيام وهما تدعو انني فيما بينهما: «مسكينة» طلبت اذ ذاك، تفسيرا. أجابتا «ألم ترى ريف عينيك؟» الواقع، ان وضعي لم يكن يسمح لي برؤيته. «انه طويل حتى ليقال انه حزمة قش.»

وبينما كنت اساعدهما في رفع سريرهما على عوامة، بثتا الي انهما تستعدان للعودة منزلهما قبل نهاية العطلة بأربع وعشرين ساعة. يبدو لي انه لا يمكن رفع المخيم قبل ساعته، رغم الرطوبة التي تفسخ سهلنا (ديان بيان فو). اجابتاني بانهما بحاجة الى يوم كامل للاهتمام بنفسيهما قبل العودة الى عملهما. تعددان لي بدقة كل ضروب العناية، التي تدعيان انها تساعدهما في انجاح عودتهما، من الشعر الى اظافر اصابع القدمين. أخمن كثيرا ما تدين به هذه الصيغة الاخيرة الى المحلات النسائية ولم أكن اقل دهشة بذلك. يوم برمته مكرس لعناية شخصية، كيف يجوز هذا ؟ كان لدي شعور باكتشاف ذروة التصفية، واسعى الى تخيل مسيرة هذا الاحتفال العجيب بذوقي في الدقة، لم تظهر لي، في كتبي، اية جبلّة ساحرة اعقد وأغمض.

شجعتني، بعد مزينتي (ديان بيان فو)، غيرهما على النظر الى نفسي. نسيتهن كما أنسى في هذه اللحظة آلام طفولتي وهذا التقوقع الذي ابعدني عن نفسي.

اعلم فقط أنني انتقل، بعد ظهر ذات يوم الى الضفة الاخرى وانني، في سعادتي، لم أشعر مذنبة في هجري الطفولة بدوري. واذا كان هناك خيانة، فلتكن الخيانة طيبة يا رب.

كان الطقس جميلا. جميل دائما، في تلك الايام. ماذا جرى من قبل. ما الذي حرض هذا التفتح؟ لعله لم تكن هناك أية علامة مبشرة. لم يكن الربيع أجمل ابداً في (ليون). أمشي في الازقة. أمشي بعد الخروج من المعهد. سوف شي كل الفصل، انه لا ينتهي. استغل أيام العطلة للذهاب والاياب دون انقطاع. كانت الحياة نزهة، تسكعا ابديا. لا أذهب الى أية ناحية. ولاأطأ الارض. كنت خفيفة جدا. انتمي الى ذلك اللطف الكوني، الى تلك المتعة بالحياة، الى هذا الحبور الذي يحمل القادم الاول على الظن بأنه أول من وجد. واذا كنت ألمس الأرض من حين الى حين، فقد كان ذلك أندر من الجائز.

لن أبوح لأي شخص في العالم بسبب رضاي. ولعلي آخفيه عن نفسي في وقت من الاوقات أليس هواء الطقس هو الذي يفرحني؟ أليس أثر هذه الشمس المدهشة المبشرة بالصيف التي، تشرق أحيانا في وسط شباط، في (ليون)، القارية؟ أليس عيدا مجانيا أحبه لنفسي؟ ألم أوضع في الحياة في سبيل الفرح الجماعي؟ ومع ذلك، فان هذا التجول المرح عبر أزقة مدينتي، الذي هو أقرب الى السمو منه الى المشي، يؤدي بي الى العودة الى الوقوف أمام الواجهات حيث ترد مرآة موضوعة وضعا حكيما صورتي. هناك هذا الاكتشاف الغير المتوقع،في اصل تمجيدي: أنا جميلة. لا بد من خوفي من أن أكون قبيحة كان عظيما جدا أنني فرحت الى هذا الحد بانني لست كذلك. الحاصل، تحت عدم الاكتراث الذي اعلنته من قبل والذي كنت مرغمة على الايمان به، كان لا بد لشبح مرضي من ان يجعلني اخشى الاسوأ.

استيقظ فجأة دون حاجة الى قبلة الامير الفاتن. منسية المخاوف، مصدومة.. وضع حد لسنوات جوبي. اكتشف جمالي، ولا اسعى الى التحقق منه، في جميع المرايا التي وضعتها الواجهات الليونية تحت تصرفي وحدي، لم تكن هناك حاجة اليه قط، ولكن لارضائي بذلك.

هذا هو الفصل الوحيد في حياتي الذي لا يقترب فيه الشك. انزه جمالي مولعة بنفسي، يسكنني اليقين، في ربيع مراهقتي، كما ينزه الاخرون طفلهم او كلبهم. اجعله يشم الهواء اعطيه ليرى.

انتهت قاعات انتظار الاطباء، الجلسة الاخيرة على حافة اريكة، انتهى الفك المدود للجس. انقشع الضباب الذي يلفني من رأسي الى قدمي. اعرض جسمي ووجهي منذ الآن. من يريد رؤيتهما؟ كل نظرة مداعبة. اشعر انه منظور الي، اينما كنت. الا تؤدي جميع الطرق الي؟ اتعلم جغرافية جديدة لليون، جغرافيةمراياها، ويستطع كل شيء اتخاذها مهمة. يظني انني اهتم بواجهة بائع أشياء مستعملة؟ لا، فأنا في مدى المرآة التي تختفي فيها والتي تعكس صورتي. سألاحظ نفسي فيها للمرة الاولى. اليس وجهاً فتياً، جسما فتياً؟ الم اتلقاهما في اليوم نفسه؟ انهما جديران.

زادت المفاجأة المتعة. يعكس سطح صقيل فجأة، احيانا، في منعطف حي اعرفه قليلاًوجه فتاة قبالتي. انظر اليها، لحظة قصيرة، على انها غريبة. تقترب. يجري كل شيء بسرعة كبيرة. ترفع الريح القاتم. يطير شعري كذلك. انها انا. انى هي. اف، ننضم الى بعضنا.. اعود الى نفسي أمام هذه الصورة البازغة من مكان غير متوقع. كنت في عيني، في عشر الثانية هذا حيث لم اتعرف نفسي، عابرة ورضيت عن نفسي.

كانت (ليون) في هذا الوقت فردوسا. وفيما عدا ذلك، فانني لا ارى شيئا من المدينة، لا انظر الا الى نفسي. كان في جسمي هذا الضرب من حسن الحال الذي كنت اسعى اليه عبثا في اوقات اخرى من حياتي. ارتدي بلا ريب احدى تلك التنورات العريضة التي تيسر المشي. احب الان الطوال العراض وتتجول رقصاتي في زي ذلك الربيع راقصات في كل تيه الازقة. يربع حجر طفولتي في الوقت الحاضر المدينة برمتها. ظننتها فسيحة، فاذا بها على مقاسي بكل بساطة. غالبا ما كررت لي امي: خذي يمينك. لم اكن بحاجة الى أوامرها الدقيقة. اقوس قامتي واكوز نهدى اللذين في عامهما الاول تحت دثار لطيف.

كان مخدرا مبهجا. سوف احتاج، بعد بضعة سنوات، الى مورفين لاكف المًا لا يطاق. ما يكاد السائل يجري في عروقي حتى اشعر براحة تبعثها نشوة فريدة ولذيذة. ماعدت قط خاضعة الى الثقل واصبح فكري الرشيق ينتقل من فكرة الى اخرى دون ان تقدر اي منها على حبسه ابدا، او على جرحه على الاقل. تولد اللذة من عدم الاستقرار واستطيع العودة الى جسمي بكل راحة بال.

اصبح هذا اللطف حالي بضعة اسابيع، بضعة أشهر، في زمن مراهقتي. اظن انني افلتت من قوانين الثقل. لم أكن غير مقذوفة الى نفسي. وحظ نساء اخريات البقاء كذلك كل حياتهن. اراهن يتقدمين، واثقات من انفسهن، ظافرات، بينما لا ينفك الشك عن تعذيبي. لا أجهل أن مواويلهن غالبا ما تقصد التضليل. درع. مثل سرطانات (نيول على البّحر)، تحمل عظمها خارجها بغية الفلاح في اخفاء طراوة لحمها. اعتبر احداهن احيانا. ليت الناس يعلمون. ألا ليتهم يعلمون كم يستطيع الضحك واخفاء القلق، والتهذيب والتشويش، والحماسة الظاهرة الاستفهام السري.. وعندئذ يجب نصب الرأس أكثر قليلا أيضا - حافظي على استقامتك - وتصليب القذال واغلاق العينين كيلا أرى الفراغ أمامي.

اكتشف كل رسم جديد بدهشة، واحيانا بنزع، رغم المرايا، رغم الصور الضوئية في تلك الفترة من حياتي التي أصبحت فيها عارضة أزياء وفتاة غلاف، رغم كل هذه الانعكاسات، كل هذه العروض. أهذا أنا ؟ اهكذا يراني الاخرون اذن؟ تعلمت من الضوء كثيرا كل الحيل، علمت انه، حسب استعماله، يستطيع التجميل تارة والتشوية تارة، وليس رد فعلي الاول الشك في مواهب المصور الضوئي، وانما ان ارى في عمله الشاهد الصحيح على ما انا او ما كنت عليه في لحظة معطاة. تترك لي صورتي هذا الشحوب، عدم استقرار الطفولة هذا، وانا عاجزة عن تخمين كيف ستظهر لدى خروجها من العلبة السحرية. على قبل كل شيء تعودها وتذليلها، وهي الجديدة دائما، المختلفة دائما في عيني.

احب عند الاخريات التجعدات وكل تلك العيوب الصغيرة التي تصنع السحر. واكرها لدي. انسى شيئا فشيئا، اثناء ادارة الصورة بين اصابعي واعادتها، واقع محيطها وينفرني ما في تعبير وجهي او عدم تناظره. يؤدي بي التعود لاشعوريا الى تجاوز نبذي. يخف وضوح الصورة وتجري في شحوب الاصول. فلا تستطيع تعليمي شيئا عن نفسي. بل ان تدهشني. وهكذا اصبح محشورة فيها، كأنه لا بد لي من الاكتمال في حلقه دون هدف. تحمل اصابعي المقضومة حتى الدم علامات دارة هذا التوفير المغلقة.

يلين أثر المحذر بسرعة، في (ليون)، فتعظم عزلتي في نظري عندئذ. تكف النظرات القريبة عن ارضائي. ولا ترضيني نظرتي قط. اتابع نزهاتي، لكنها تصبح آلية. ادور في قفص،شرقت لذة المشي. واذا تسكعت دائما، فذلك لتهدئة انتظاري. شيء لا بد ان يأتي، اعوة بكل امنياتي. شيء ما او بالاحرى شخص ما. اشرع في الحلم بمحبين يطبعون كلماتهم او صورهم في حكايا صديقاتي أو مطالعاتي.

أرغب في ان احب طويلا قبل العثور على المناسب، قبل الاستسلام الى الهوى. عانيت بعض ارتباطات الطفولة تلك التي يسخر منها قليلا بيسر في سن البلوغ. وهي ترسم مع ذلك بدقة ما سوف يصبح عليه الحب القادم ولديها القدرة احيانا على ذلك.

هناك، بعد (موريس)، صبية التقيت بهم بمناسبة العطلة السنوية. اقسم لهم على الاخلاص ويمحون من ذاكرتي بعد تبادل الرسالتين او الثلاث رسائل الاولى. كان هناك، في السنة التي استعد فيها الى ترك الطفولة، ابن اللحام، الذي كان يتحلى باجمل عينين زرقاوين. يجعلني اكتشف اغاني (براسان)[1] و (بريل)[2]، في غرفته فوق دكان أبيه. شبك اغلفه مجلة السينما بطنفسته

١) (جورج براسان) مغن فرنسي، ولد في (سيت) سنة ١٩٢١. مؤلف اغنيات شعرية، مفعمة بحرارة الخيال - المترجم.

٢) (جاك بريل) مغن ومؤلف اغنيات فرنسي الجنسية، بلجيكي الاصل. توفي في السبعينات - المترجم.

المزخرفة. تبتسم كل الشقراوات الهلليوديات بملء اسنانهن ويبدين، تحت براق صدرياتهن، نهوداً تجعلني غيورة. وبينما تدور الاسطوانة، انظر خلسة الى عيني مضيفي اللتين تشبهان اذني الفأر وأتساءل. هل ينبغي علي، لاغرائه، ان آخذ من النجوم شعرهن البلاتيني واستدارتهن التي تدعى امتيازاً في ذلك الوقت؟ كانت استداراتي ما تزال متواضعة جدا. كنا عفيفين، في غرفته فوق الدكان. ندع عواطفنا المتبادلة تستشف بعضها بعد انتهاء اللقاء وتعبر عن نفسها بالاثارة قبل الحنان. لا شك انه يهديني بواكير ازهار شاش القاضي الربيعية، لكننا نتسابق دون رحمة على مسرح التزلج. يوقعني الصبي ذو العينين الزرقاوين ذات يوم، أثارت سخريتي فيه اعصابه، على الجليد، ويجرني دورة مسرح في ثلم سكتيه، ويده متشبثة بشعري.

لم يكن زميلي، ساعة القبلة الاولى، ابن اللحام، بيد ان المكان كان جديرا بمجلة السينما. اذهب في العطلة الصيفية الى (كورسيكة)[1]. كان الليل لطيفا على جسر القارب. يدعى (فيليب) وتجعله اللحية التي تطرق عنقه يبدو أكبر عمرا مما هو عليه. يزلق بين شفتي لسانا صلبا، ان لم يخنقني خنقا تاما، فقد بدا لي مقرفًا. شجعني على ان اعطيه لساني لكنني لم اقرر ذلك، صائنة نفسي عن عقابه بالمعاملة التي عاملني بها. اجد الشاب، آخر الليل، احلى من قبلاته. كان الشاطيء في مدى النظر. ذهب (فيليب) يجمع حوائجه. قفز، في عجلته، قفزة تعيسة من مر الى آخر ففكش مفصله. رأيت في (بستية)[2] اختفاء اول من قبلني، في سيارة اسعاف. اهدتني (كورسيكة) لقاءات اخرى، مواعيد اخرى. ما ان مضت المفاجأة الاولى، حتى شرعت في تذوق طعمها.

بعد فصل الصيف، تعود (ليون) الى حبسي حبسا لا مناص منه واستأنف هيامي في وجهي. حرم علي البوح. هل تعاني الاخريات هذا الاندفاع الذي لا يؤدي الى اية ناحية؟ ما هو الاسم الذي يعطينه اياه؟ سوف اريد

١) جزيرة فرنسية في البحر الابيض المتوسط ـ المترجم.
٢) مرفأ كورسيكي ـ المترجم.

صديقة ولا اجدها، قد اتكلم وحدي، بل ان المناجاة الداخلية تستمر دون نهاية، حتى عندما أصمت. هناك في المأساة الاتباعية، حضور المخلصة اليقظ، على الاقل. الم تكن عزلتي اعمق من عزلة بطلاتي؟ حسبت، عندما رأيته أول مرة بموقف الحافلة، انه ما من شيء يستطيع لفته عن مطالعاته. كنت مغتاظة منه ومفتونة به في وقت معا. لا تدهشني وفرة الكتب، بل كانت وفرة الصحف عندئذ غريبة علي غرابة تامة.

لا تروق له صور عالم السينما ومجلة السينما، ولعله ينصرف الى الصلب، الى الجد. عندما يأتي الـ ٣٢، يصعد آخر واحد دائما، دون الانتباه الى الدراسة، واقل من ذلك الى العابرين الذين يتكدسون عليها. نصبح احيانا مرصوصين الى بعضنا واستطيع النظر اليه لانه لا يراني. المهم، انه كان أجمل عن قرب. اجد فيه شبها مع (جيرار فيليب)[1] ربما.. هناك الخط الحاد في فمه، وفي عينيه الواسعتين، هذا الشيء الغامض والوديع الذي يدل عليه ايضا عدم اكتراثه بالاخرين. احسب انني ارى علامة الكمال في المثلث الذي يرسمه الاخدود المضاعف تحت عينيه وفي فرضة ذقنه. تبدو لي صورته، بالمقابل، فحمية عن بعد. يبدو لي الان بعيدا، وهو قريب، وعندما اراه ينزل من الحافلة ويبتعد حقا، اسف لان شبحه ومشيته ليس لهما بركة فنفان ولا توليب[2] الهوائية. كانت لملاك الـ ٣٢ خطوة فلاح، يثقلها أيضا نعلاه المطاطيان الغليظان وتخمن تحت ملابسه الفضفاضة اطراف طويلة ونحيله، لكن جملة شخصه يتحرك كما لو كانت مرغمة على ذلك كان يمكن ان يقال ان كل حركة تزعج مطالعته.

لا ادري اين او كيف حدثني ذات يوم. لا اذكر غير حبوري. رفع ملاك الـ ٣٢ رأسه عن صحفه. رآني. بدا لي الامر غير واقعي. واذا لم اتذكر كلماته

١) ممثل فرنسي ولد في كان ١٩٢٢ ـ ١٩٥٩ بعد ان مثل الدور الاول في كاليغولا لالبير كامو سنة ١٩٤٥، دخل المسرح الوطني الشعبي، حيث مثل (السيد) و (امير همبورغ خاصة)، متابعة حرفة السينما (الشيطان في الجسم ـ الخزامي فنفان ـ المترجم.

٢) اسم شخصية جيرار فيليب في أحد أفلامه.

الاولى، فلا شك انني لم اسمعها وانا في ذروة الفرح والاختلاط. وبقدر ما أتأفف ويبدو انني لا أفهم شيئا مما يقوله لي، بقدر ما أشعر بانني سعيدة، اكف عن الشعور بالعار لخجلي وخراقتي، تحل بي هذه الفكرة الوحيدة: رآني.

حسبت انني استطيع رؤية وجهه الجميل دون أي حرج. قلما فكرت بان اهتمامي سيثير فضوله بالمقابل. بل اعاني لذة اكيدة في الغوص في هذا التأمل وحدي. اسيطر عليه طفرة. الا نتمتع، في أحلامنا السرية، دون خشية، بحبنا الممنوع؟ لكن هذا الحلم امتاز بانه لم ينقطع باليقظة. اعرف عادات ملاكي. اعلم انني سوف اعود في الغد الى رؤيته بموقف الحافلة واقع في غيبوبة أيضا.

ترى دون ان ترى. اكتشف هنا درباً لم توفره لي بالذات اعقد ابدا. سوف تصبح هذه الايقونات المعبودات زمنا، في حميمية لا يباح بها، صدى في حياتي. هل داعبتني هذه الصور الجميلة.. كم احببت من هؤلاء الرجال الذين لم يعرفوا شيئا عن احلامي ابدا. حسبت انا البصيرة، ان الكتابة سوف تجعل تبصيري مشروعا.

يسير الملاك الى جانبي بخطوة الفلاح. ومن ناحيتي، لم اكن أطوء الارض قط. ان تمتعي بعدم اكتراثه من قبل لم يمنعني من ان اجد الاهتمام الذي يبدو أنه يوليني اياه الان لذيذا جدا. الحق أقول انني لقيت عنتا في فهم ما يجري لي. بأية معجزة استعاد ذلك الرجل البصر والنطق دفعة واحدة؟ لا ريب في انه ينبغي انتظار كل شيء من ملاك.

يقول جملا، واجيب بأي كلام، دون الاهتمام بنقصي. الم يخاطر بجعل حلمي ماديا؟ عليه ان يدل على الاتجاه وسوف اتبعه في كل مبادراته. احسبه أكبر مني سنا وتجعلني مطالعاته اظنه كذلك. كنا نقول في الثانوية «هذا عجوز» عمن يكبرنا بثلاثة أعوام، وعندما تتردد في الصف تلميذة على عجوز في العشرين، نصفق استحسانا. لقد نجحت في اجتياز حدود لما نستطيع بعد عبورها وكسبت منها قدرا لا مراء فيه علمت أن ملاكي يكبرني بما يناهز العام ولم يفقد بذلك هالته. اعجب بأن معارفه في عمره كانت أوسع من معارفي

وأفضل ترتيبا. جمعت مطالعاتي وحبي الاطلاع جمعا عشوائيا. لا تلبث محادثاتنا ان تساعدني على جمع العناصر المشتتة وتنظيمها. لا ريب في ان البناء يبقى واهيا. لم يكن من مادة صلبة، بل يشبه قصر (رياح جيبور)[1]، حيث لا يوجد شيء خلف الواجهة المفرغة التي تخدع البصر.

الملائكة نفسها لها اسماء. كان لملاكي اسمان وافضل الثاني. اعترف له بأنه يصعب علي ان ادعوه ب. فهناك الان ب في اسرتي ويربكني التماثل. فيفوض الى تسميته ك. كنت الوحيدة التي تفعل ذلك وهذا يبرر تفضيلي كذلك.

كان الشتاء باردا في ذلك العام الى درجة ان كل انابيب الحي انفجرت بعضها اثر بعض. بيد انه يبدو ان لا شيء يستطيع ايقافنا. نمشي جنبا الى جنب للتمتع بالاحساس كم كنا قريبين. لا أحكم الان على مشيته او قامته قط. لا أريد أن اعلم فيما اذا كانت له مثالب او مناقب. كان دون نظير، وهذا يكفي.

يسكن ك. على بعد مئتي متر من بيتي، مواجه كنيسة (نوتردام ديزانج) بالضبط. نعود الى الترافق مساء دون نهاية قط، تحت مظلة نوازل متجلدة. كثيرا ما قالت لي امي انني افرط في التأخر في البرد وانني سأصاب بمرض، اشعر انني اتقيته باعجوبة. يعجل الاخرون في العودة الى بيوتهم ما ان تجلد ريح الشمال الاجسام وتعض كل ما يتجاوز الملابس الصوفية. يحكى ان طفلا اراد ان يلعق ممسك جسر (غيوتيير) كأنه بوظة بالفانيلية فظل لسانه ملتصقا بالممسك. اما انا فقد نسيت خوفي من البرد، الذي يعود الى عمليتي الاولى. ليست لي ذكريات قط. كنت في حاضر احساسي.

نطنب في محادثاتنا اطنانا لا حدود له عند سجو الليل في دروب ارض قاحلة متجمدة في قحطها. تطقطق الارض. تنزلق اقدامنا على برك ماء استولى عليها الجليد. لا يصادف اي شخص في ممرات العبور هذه. كنا وحدنا. يحدثني ك عن العالم. يقول لي ما علمته اياه عند مطالعاته اليومية الصحف. يجعلني استشف ما يجري في (الجزائر)، الحرب التي ما تزال تضمر اسمها

---

[1] جيبور: مدينة هندية ـ المترجم.

وهذا الامور التي لا يتكلم عنها في بيتي. امتص كل كلماته مثل كلمات ابي في الماضي عندما يعلمني الجغرافية ونحن نعزق خس البستان. هناك رجل كل مرة في بداية معارفي. يقيم حوار. يصم اذني عن كل ما هو غريب عنه ويشجع حبي للاطلاع، ظاهرة غريبة قد ينغلق العالم وينفتح في الوقت ذاته.

كانت امي على صواب. ينتهي البرد الى التسرب الي والزمني الزكام قطع تسكعنا. وبدل ان أتألم من هذا الوجع الخفيف، وجدت فيه لذة، مختلفة حتما، لكنها واقعية كذلك. يأتي اعتزالي في الوقت الملائم. أشعر بالحاجة الى تسجيل استراحة لا حدق في فوضاي في عزلة، عندما تفرط عواطفي في كثافتها.

اعود ارى نفسي غارقة حتى الأذنين، راحتا يدي تشبهان الصورة المحرقة لجفنه. اشم رائحة الغروغ[1] اسمع صوت (براسان): «زهرة جميلة في جلد بقرة، بقرة جميلة متنكرة في زهرة...» وتدور الاسطوانة في حاكي الكهربائي الاول ويدور رأسي كذلك. انا حارة. انا ثقيلة حارة وثقيلة بسري. اعلم انه يفكر بي. احب ان يحبني. أقرأ اغنية الحب عن بعد (لجوفري رديل)[2] التي سوف استشهد بها في اهل (رمستر): لن اتمتع بالحب ابدا.

الا بهذا الحب عن بعد،
لا أعرف خيرا منه أو انبل.
في أي مكان قريب أو بعيد.
اريد أن أصبح اسيرا.
هناك عند الملوك المسلمين.

تؤلمني حنجرتي. يسيل انفي ويطن صوتي، الذي يقرأ قصيدة (جوفوري رديل)، في رأسي. كاد الرشح يصمني. وهكذا تنغلق الشرنقة على حماي

١) شراب مؤلف من ماء الحياة، او الروم، والماء الساخن المحلى والليمون - المترجم.

٢) أمير (بلاي)، رجال القرن الثاني عشر. أغنية (الحب عن بعد) هي في الاصل من أسطورة الاميرة البعيدة - المترجم.

المضاعفة. ما ازال اذوق الان لذة ادراك الاخر عبر المسافات وهذا «الحب عن بعد» الذي يعنيه الشاعر. أشعر بانني أعيش فترة سوف تستعيدها ذاكرتي. اضيف الى الاحساس، للوهلة الاولى، الرغبة في المحافظة عليه، مضغة ثم مضغة حتى يحشر طعمه دائما فيّ . أبدأ أبدأ المجموعة الوحيدة التي سوف أتمنى متابعتها مدى حياتي. قلما أحب الأشياء، الطلاسم، ولم أجمع غير مجموعة هذه اللحظات حيث يولد الفرح دون سبب، حيث يشرق، متوقعا ام لا، قويا دائما. لا يبقى، من وجود، غير هذا التنقيط. لن أتخلى عن مجموعتي في سبيل أي شيء في العالم. لا يمكن أن يوجد من هو أنحل مني في هذا المضمار. أتخيل نفسي يوم موتي صائحة بآخر قواي: «شريطي، شريطي» بقدر ما يقلقني الخوف لانني لم أفلح في ملئه حتى آخره. لا اوصد ابوابي، لا أخشى اللصوص. اعلم ان الاهمال الذي لا يرد هو عدم فلاح المرء في اغناء مجموعته الخاصة فليست الاخريات غير بديل عنها.

ذاب الجليد عن (ليون)، ونحنا نتحدث، ك وأنا، دائما كثيرا، لكننا نزيد وقت تقبيل بعضنا.

عادت القبلة غير الصورة الملزمة في رقصة الاغراء التي نفذتها على كره مني كانني لم انفذها من قلبي، قبل عام، على جسر السفينة. بيد انها ما تزال تمارس قرب العنصر السائل. تجذبنا ارصفة (الرون) حتى الفتنة ويصبح اليم موحشا، بالاقتراب من (الملتير) والتقائه مع (السؤون) ضفاف النهر تحتوي العاب الاولاد دائما، لكن عابر طفولتي اختفى واصبح المتنزهون نادرين. نقبل بعضنا على ضفاف النهر. لدي ذكرى مساء. غاب ابواي، متيحين لنا بذلك امكان التأخر في ضواحي (الرون) أعود أرى نفسي ممددة على الدك. سجى الليل، بيد ان الطقس لطيف لا بد ان الحجر قد تدفأ في الشمس النهار بطوله، لانه يحفظ حتى هذه الساعة المتأخرة بعض الدفء لست برادنه. لعلني عاجزة عن الشعور بشأن آخر حلاوة شفتي ك على شفتي. لا نتبادل القبل، فهي القبلة

نفسها التي تمتد دون حدود. لتنشق، ملتحمين احدنا بالاخر بفمينا وحدهما، النفس ذاته ونحيا الحياة ذاتها.

يجري النهر والزمن دون أن نعاني الحاجة الى الانضمام الى بعضنا على وجه آخر. فظل هناك، فما الى فم، ايدينا في راحة كذلك جسمانا. ألا تسري الموجة سريانا حرا من احدانا الى الاخر؟ اتلقى منها الحياة، انا الحجر المتمدد، المحفورة في حجر الدك. بيد انني اذكر اننا تبادلنا دورينا في لحظة ما، فجرى بدوره الحجر ونفخ فيه الحياة.

دخل هذا المساء في مجموعتي لاول وهلة. لا ريب في أنه كان هناك غيره، لكنني لم احفظه. هل هناك أفضل منه؟ لعله الاتفاق التام بين كائنينا، وهذا البطء، وهذا الدفء، وهذه الحلاوة. لم يكن عندئذ غير بعض حب المراهقين الذي هناك الكثير منه. حب يحيا قبل ان يجسر على تسميته. حب يبدأ بداية حسنة ولا يعرضه شيء الى المأساة.

تعارفت امانا، بواسطتنا. واذا تمنت أمي شريكا حسنا لابنتها الوحيدة، التي تستند اليها كل المزايا بسخاء، فانها لا تجد شيئا تذم به ك. تقول: ان ذكاءه والشهادات التي سيجمعها سوف تؤدي به الى ارتقاء السلم الاجتماعي. ولعل ما يطمئنها ان اسرته من أكثر الاسر تواضعا. تتمنى لنا ارتقاء دؤوبا وجديرا. اليس حسنا اجتياز الدرجات واحدة أثر الاخرى، دون تجاوز أي منها، بالترتيب والتمييز؟ لا يجوز التوقف في الدرب او الافراط في التطلع نحو الاعلى او العجلة. قاعدة ذهبية: لا تدع احدا يلاحظك.

الحقيقة أن أمي تود الاحتفاظ بي أطول وقت ممكن وتتمنى الا تستمر هذه القصة الا قليلا. واذا كان لا بد من قصة، فستقوم هذه بذلك. وفيما بقي فسيري متى تنتهي دراساتنا. الا يسمح انتظار طويل باختبار متانة الصلة. تكرر؟ نحن نثق بك. الواقع ان التربية التي تلقيتها لم تكن مفرطة في القهر قط. كان هناك ما هو أسوأ في تلك السنوات التي لا تلاحظ فيها اية علامة مبشرة بالثورة المقبلة.

يبدأ ك في الجامعة دراسات في الآداب يتألق فيها. كنت في الصف النهائي في ثانوية (سان ـ جست). هجرت المعهد العصري في زقاق (جرنط)، في هذه السنة الاخيرة من الدراسة الثانوية، واصعد مع المشاة للهجوم على فرق النخبة المنتشرة على هذه الهضاب حيث اعتني بي من قبل. احاذي لاول مرة بنات البورجوازية الليونية. يتصرفن دون حرج وبمزاح لم اتعلمه. اجد في خبثهن سجا، وفي حريتهن في الحركة اناقة.

كن جميلات أحيانا. يتيح لي جمالهن التحقق من الاطروحة التي كثيرا ما استعادت امي دعمها امامي. وهيّ ان أندى الورود لا تنبت على اكوام القمامة، خلافا للاسطورة. يعتمد برهانيا على قوانين الوراثة. يتزوج أغنى الرجال، أجمل النساء، وهكذا حتى تعني المورثات العائلية، من جيل الى جيل، بكل الزخارف المضافة. وفي نهاية الحساب يصل التراث الثابت واكتراث الجيلي باتفاقهما الى شبه الكمال، لا بد ان امي اعدت نظريتها في الفترة التي كنت احسب فيها نفسي جميلة. لم اعترف لها بشيء من تلذذي ولكن لا ريب في انهاء خمنته ببعض الامارات. لم يبد لها هذا التبجح صفة رديئة وحسب، بل خطيرا. الا تواجه بنات الشعب اللواتي، يؤمن بانفسهن، كل ضروب خيبات الامل؟ لا بد من اعادة غروري الى حدود الصواب. لقد ضاعت هذه النظرية المبسطة قليلا. من زقاق (الكولاتات)، سوف يقال بإسلوب أقل تنميقاً، أنها تحب اسكات هذري.

كذلك فأن أبي حاول مرات كثيرة تخفيض تطرفي ومطالبي. لاكيف في كل آن عن ذكر خرافه مالك الحزين. لقد كرهت الحيوان لا سيما ان لي عنقا طويلا، ولا بد لي من قراءة (جان اوريو) على مهل، حتى استطيع تصور مصافحة مع (لافونتين) كثيرا ما كرر علي: «تذكري مالك الحزين» بيد انني أفضل عنزه (افبيسيفان). الم تستمر هذه (الانتيغون)[1] ذات القوائم الاربعة في

---

١) (انتيغون) ابنة (اوديب)، اخت (اتيوكل) و (بولينس)، حكم عليها بالموت لانها دفنت رغم معارضة الملك (كريون)، (بولينس)، الذي قتل امام (طيبة). وقد كتب «سوفوكل» سنة ٤٤٢ قبل الميلاد مأساة باسم (انتيغون)، تجابه فيها البطلة (كريون) وتدافع عن «القوانين غير المكتوبة» للواجب ضد العدالة الكاذبة للقرارات البشرية. وكتب (الفلوري) في القرن الثامن عشر مأساة باسم (انتيغون)، كما كتب (ج. انوى) مسرحية بالاسم نفسه سنة ١٩٤٤ ـ المترجم.

معركتها المستحيلة حتى آخرها؟ تفقد الحياة لكنها تكسب الاحترام، آه مالك الحزين الغبي ذلك فانه مضحك في تحاذله نفسه.

كان هناك تنويع في درس الحكمة. فيهجر ابي عندئذ قاصه المفضل، ويستحضر، في سبيل التخفيف من حماسي، ذكرى السمكة الذهبية الصغيرة وامرأة الصياد التي لا تكل والتي خسرت كل شيء لانها ارادت كسب كل شيء. كنت احض على الاعتدال والتواضع، حتى انني لما غصت في الثانوية في وسط ليس وسطي، شعرت بالضيق. قلما أتألق شفهيا، وسط بنات البرجوازية الليونية. يتلاشى خجلي في الكتابة ويأخذ (ك) بيدي اخذا جديا في الدراسات. لم اطف فوق فوضى مطالعاتي الا مع أزهار الشر. كانت قوية ومقلقة حتى ان مقاطعها نقشت في ذاكرتي وطاردتني اياما بلياليها. هل هذا هو الادب، الشعر؟ تفز عني الكلمات العظيمة ولم أصبح حساسة الا بالاهتزاز الذي احدثته هذه الصور في اعماقي. استشف عالما يرعبني ويجذبني دفعة واحدة واحسب انني الوحيدة التي تعاني هذا السحر.

قربي دائما الكتاب الذي كشف لي (بودلير)[1] انه في الوقت الحاضر مصفر، ممزق. تبعني في كل نقلاتي، عبر كل تحولاتي. أبحث في النص المقروء والمقروء، في الملاحظات التي خربشت فيها بالقلم الرصاص أثاري القديمة. تسعى مجموعة مكتبة (غروند) خزانة الكتب الثمينة. كان الاصدار في الواقع طبعة رخيصة. هناك، على الغلاف، رسم رديء لوجه امرأة. اثبت الكتاب على مدى ساعات، بعد اغلاقه، لاحس بقدرة الكلمات إحساساً افضل. ماذا تصنع النساء الملعونات فيما بينهن؟ افكر في (دلفين)[2] افكر في (هيبوليت)[3]. ولا افهم. هناك قدر من الاسرار. هل تتلاشى ذات يوم ؟ هل يعرف الاخرون،

١) شارل بودلير؟ كاتب. شاعر. فرنسي، ولد في باريز ١٨٢١ ـ ١٨٦٧ وريث الرومانسية، وامين على العروض، يعبر في الوقت نفسه عن ماساة القدر البشري وعن رؤية صوفية للعالم، حيث يكتشف «علاقات» خفية. قصائده (ازهار الشر ١٨٥٧ ـ قصائد قصيرة نثرا ١٨٥٧ وكتابه النقدي الفن الرومنسي ١٨٦٨ مصدر ـ الحساسية العصرية ـ المترجم.

٢٠) رواية رسائل للسيدة ستائيل ١٨٠٢ المترجم.

٣) مأساة اريبيدس ٤٢٨ قبل الميلاد ـ المترجم.

البالغون، هذه الاسرار؟ لم يكن الضباب الليوني شيئا. أسخر كثيرا من سوء الطقس ونزواته، كان في داخلي ان كل شيء يبدو غائما، مريبا. اتقدم تخبطا، تشوشني سعة جهلي.

افحص، في ظهر كتابي، قائمة الكتب الصادرة الان في (خزانة الكتب الثمنية). يشار الى انه يمكن وضع الكتب، المسبوقةبنجمة، بين كل الايدي. لم تكن هناك نجمة قبل (ازهارالشر). اتعود اخفاء كتابي بين رفاس سريري وفراشي. يصنع عاري ومتعي. احسب انني الوحيدة التي تتمتع بمطالعته.

علمني ك انني عادية. يحب (بودلير). يشاركني انواع ادواري. بل يشجعها. اصبح عندي، استاذا، منيرا واعطاني لاقرأ ما كنت اجري وراءه. انتقل من القطع المختارة في كتبي المدرسية، الى الاعمال الكاملة ازدرد ذكريات ما وراء القبر والاعترافات بلقم ضخمة. ابدأ كذلك الاهتمام بالمأساة التي تمثل على الضفة الاخرى من البحر الابيض المتوسط. نبحث ك وانا، في الصحافة عن كل ما له علاقة بحرب الجزائر.

كانت استاذتي في الفلسفة، في ثانوية (سان جوست)، جانيت كولومبل، وضعت في الصورة، كانت شيوعية. بعد ٤ تشرين الثاني ١٩٥٦ ودخول الفرق السوفيتية (بودابست)، يرد على كل حديث لصالح الاستقلال الجزائري بالحديث عن المجر. ندخل دون ان ادري في تجارة الهول هذه التي يبدو انه ليس لها نهاية؟: تبادل معسكرات الموت، فيتنام مقابل تشيكوسلوفاكية، افغانستان مقابل جنوب افريقية، الشيلي مقابل بولندة. لكن (جانيت كولومبل)، مهما كانت شيوعية، توحي الى تلميذاتها بالاحترام. نعجب بهذه المرأة العظيمة التي لا يستطيع هدوءها وعلمها اخفاء توتر داخلي. تخاطر بعضهن بمناقضتها مسردات الحجج التي تطور في اسرهن. تجيب (جانيت كولومبل) دون ان يرتجف صوتها. يحملنا، لطف صوتها ومنطقها الذي لا يدحض، على التنكير. يمكن ان يقال فيها ما كتبته بعد زمن طويل عن (سارتر)[1] في حزب الحياة:

١) جان بول سارتر، الفيلسوف الفرنسي المعاصر ـ المترجم.

«تفيض التلقائية دائما وتمنح الشعور بالنفس الحياة: انها تسبق المعرفة. يمضي الوقت بسرعة، في هذا الدوران..»

ندمت متأخرة لانني لم اكن اشد انتباها الى محاضراتها. تشتتني بلبلة كبيرة. بيد ان ذلك العام يبشر بالخير. ولم اعرف شرا منه.

كان يمكن لقصتنا ان تصبح جميلة. يسير جسمانا وروحانا بالخطوة نفسها. وكيف لهما ان يفعلا غير ذلك وهما غير منفصلين؟ ينبغي على مداعباتنا ان تصبح لطيفة. ضاع هذا اللطف قليلا على الدرب، ذهب مع البقية. لم تحفظ لي ذاكرتي غير الالم. لا ريب انه كان في مداعباتنا لطف لا نظير له. اريد الاعتقاد به لا سوغ به الالام المقبلة. جلدان طازجان ينزلق احدهما على الاخر، لان جلده مثل جلدي لم يستخدم. لا تظهر لنا خراقتنا. السنا متكافئين حتى في الجهل.

نذهب الى بيت ك عندما يكون ابواه غائبين، وغالبا ما يحدث هذا. وجدنا، في المرة الاولى، سياقا، موضوعا نحرره. الواقع اننا لم نكن مخدوعين برغباتنا وتبدو لنا الامور بسيطة ومعقدة في الوقت نفسه. لا أخشى منه شيئا واجهل كل شيء عما هو. رجل. ماذا يمكن ان يعني ان يكون رجلا؟

لم يكن الخوف دليلي ولم يفزعني الجنس الاخر ابدا حتى يؤدي بي الى شهر الاسلحة والتعليمات لمنازلته او حبه ذات يوم. غالبا ما انهكني رجال، يمشون خلفي، في نزهاتي العشوائية الطويلة في (ليون). فالمدينة، تحت سمعتها التليدة بالبرودة، ايطالية بقرميدها الاحمر وخصوصها وآجرها وعناد مطارديها. تعزز الفرق في بعض الفصول ويضيف الربيع في ايام المعرض الخمسة عشر كتائب اجنبية الى القوى المحلية. يضع الحاج ذكر، احيانا، حدا لمغامراتي. واذا كنت اتظاهر بانني مغتاظة بتوفيق سلوكي مع سلوكه، فان الهلع لم يسيطر علي ابدا. اعرف، في ارضي، كيف افلت من المطاردين في اية لحظة. اعرف الطرق والمعالم السرية للدخلات والممرات. لي ساقان. اعتقد انني قوية. لا يرعبني النوع المذكر.

لم تخطر ببالي الرغبة في ان اكون صبيا، في العمر الملائم لمعاناة ذلك.
عندما حدثت عن (فرويد)[1]، اصبحت عاجزة عن العثور في ذاكرتي على أثر الرغبة في القضيب. لا ريب في انني اشتركت في العاب الصبية وامكن معاملتي على انني صبي ناقص، وربما لكزت رعاع الحي بقبضتي، لكنني اعلم، في داخلي القوي الشهير، انني بنت. احس انني مختلفة عن الاخرين بسبب مرضي، وليس لانني صبي ناقص ابدا. كنت بنتا، واصر على ذلك ابكر في وعي هذا الامتياز. الا يفوض الي الذهاب بحرية من عشيرة البنات الى عشيرة الصبية؟ كنت في يسر مع هؤلاء واولئك. اتاحت لي التربية التي رباني عليها ابي اللعب على اللوحين، لن اقول بكل براءة، بل احسب على العكس انني استفيد شعوريا من هذه الامكانية المضاعفة بل ويدهشني الا تقوم الاخريات بذلك. آخذ تارة فتارة من الجنسين ما يهمني. لماذا يختار المرء حين يستطيع الجمع؟

ارتبك اول مرة احدث فيها عن الرغبة في القضيب. ابحث في ثنايا ذاكرتي ولا اجد فيها شيئا قد يكشف من قريب او بعيد عن مثل هذا الجشع. ليس الحسد من طبعي. لم استطع الاجابة على سؤال: من تريدين ان تكوني؟ بامر آخر غير: انا نفسي. آه كم ارى حاجتي، نواقصي، عيوبي، تناقضاتي، انها لي ولا اتمنى غيرها. لا يبدو لي الحسد خطأ وحسب، بل محرما. انه يخطيء بحق الحياة. ،ليس له اي سبب للوجود، في مجال الذي لا نظير له. اذكر انني تأملت على شاطيء (نيول على البحر) جسم ابن عمي العاري بشيء من الرضا. كان اصغر مني باربع سنوات، فقلما كان البسيط مؤثرا. افكر دون ان يبوح لي في هذا الصدد ان هذه الزيادة لا تنم عن قوة الفرد بل عن ضعفه. الحق انه يبدو لي انه اضيف، الى تواضع قامته وهيئته، شيء مزعج. ألا يبطيء مثل هذا التابع الهرولة الجميلة؟ اهنيء نفسي سرا بانني لم اتحمل طول حياتي

---

[1] سيغموند فرويد، عالم نفس نمسوي ولد في (فريبرغ)، في مورافية ١٨٥٦ - ١٩٣٩ مؤسس التحليل النفسي، طريقة لعلاج الامراض النفسية بالبحث عن الميول الغائبة في اللاشعور واعادتها الى الشعور بالتحليل. كتب خاصة علم الاحلام (١٩٠١)، ثلاث دراسات في نظرية الجنس (١٩٠٥) علم النفس الجماعي وتحليل «الانا» ١٩٢١ - المترجم.

هذا الضيق، دون ان ارجع الى اقدام الرياضيين، بل الى سفر التكوين التي سرعان ما يعيد غطرستي الى محلها الصحيح،اي الثاني. بيد أنني ربما أسفت لانني لا أستطيع التبول واقفه، ولا سيما بحافة الماء عندما تلتقي قذفة البول مع الموجات الاولى. لكن الفلاحات العجز في الحقل لا يأبهن بذلك، يلبسن لباسات مثقوبة، ويبلن، بين الثلم والاخر، فارجات سيقانهن تحت ستر تنوراتهن، بولا هادئا دون قطع مهمتهن.

أحب جسم ك. لم أعرف غيره. نهيء مستقبلا جميلا، ونحن على الغيمة الصغيرة الذي يبدأ بدءا حسنا دون ان يقهره شيء. وجدنا في بعضنا علاج عزلتنا. الا يولد الحب الاول من اتحاد عزلتين؟ نزلق أيضا نصف مكسوين تحت اللحاف. يبدو لنا اللمس اقل عفة من النظر. نظل ساعات نكتشف بعضنا احيانا لا نفعل شيئا سوى ان نتقاسم حرارتنا. لم يكن هناك اي فراغ صبر، فلدينا الوقت كله، بل لعل الزمن لا يوجد ايضا. نعلم، بالتاكيد، انه لا بد لنا من ارتداء ملابسنا في لحظة ما كيلا يكتشفنا أبوا ك في هذا الاهمال المغضب. هذا هو الحد الزمني الوحيد. وفيما عدا ذلك اعتقد اننا كنا خالدين.

نؤجل الى الغد ما نستطيع عمله في اليوم نفسه، لانه لم يكن هناك فرق بين اليوم والغد، يختلط المستقبل بالحاضر في استمرار فريد ولا يتدخل اي شخص في تفاهمنا. تنتصب سوأة ك، اثناء هذا التبادل. لم اكن اتوقع مثل هذه التحولات ودهشت في داخلي دون ان اجسر على الاعتراف. الحق ان الصبية الصغار على الشواطيء لم يعدوني اعدادا حسنا لهذا المشهد. فعلي اذن مراجعة آرائي. وجدت فكرة واحدة مؤيدة: انه عضو على حدة، كأنه مضاف. الا يتطور خارج نسبته ليسرق من الانسان هويته المعتادة؟ كأن هذا النمو الزائد في الجسد يعذب ك، بحيث لا تعوض لذة رؤية نفسه مواس بذلك كل العناء الذي قاساه. حسبت اولا انني غريبة عن المسرحية التي تمثل، ثم فهمت انني آخذ دورا فيها. يسرني ان تولد بارادتي معجزات مماثلة، وسرعان ما استعجل قدومها، دون ان اهتم بان يعانيها ك ام لا. لا اظن ان التجاوز وسرعته يشهدان

على الحب الذي يكنه لي. افرطت بالاهتمام بكل هذه المكتشفات لا بحث في نفسي عن جواب عن الهموم واللذة التي يعانيها بالتناوب.

لا يتسرب الي. لماذا نغلط الامور اذا كنا خالدين؟ كان هذا الشعور بالخلود اقوى من كل استنفار. بيد ان الرب يعلم ان كان المحرم ما يزال قادرا في هذا الزمن. تثار الاخلاق، الدين. يستر الخوف بقناع مبجل. اصبحت الاسر اقل نظرا بعد زهاء عشر سنوات، عندما خففت الحبوب المخاوف والغت المخاطر.

لم تكن قد قامت عيادة الشباب. لا يدل اي استقصاء، اي احصاء، اي سبر عندئذ على السن الملائمة لفقد العذرية.. كان هناك، بين هذر نهاية المأدبة والاخلاق الرسمية، منطقة صمت لا يسجل فيها شيء. على كل واحد، وواحدة، ان يشق طريقه. لم يكن لدينا شعور بالوصول بالقوة الى ابواب الحب. لم يدعمنا في رغباتنا الشعور الغامض بالانتماء الى جماعة، الى جيل يبحث عن تعزيز نفسه بلغة بسلوك ومطالب وحقوق. ليس لنا، الساعة، غير ذكرى للشواطيء شبه الخالية في طفولتنا وآفاق الكمائن في الجبال الجزائرية. لم يكن تفتحنا يكفي في كثافته وتراصه ليوهم كل منا بانه يشاطر الاخر نسغ الحياة نفسه والاندفاع نحوها، نحو الحب. كان علينا ان نتدبر امرنا وحدنا. كنا جروين مطويين الواحد مواجه الاخر ونواقيس (نوتردام ديزانج) تدق الساعة الرابعة في زمن لا ينضب.

بيد انه قد يطرأ سوء تفاهم يفصلنا يومين او ثلاثة. وسرعان ما يبث ك امي المه. فتسرع عندئذ الى الدفاع امامي عن سبب يلهمني بعض التسامح. تسر بأن تصبح وسيطتنا ونفرح نحن الاثنين بالوفاق القريب. تتوقف امي احيانا، وسط الفرح، وتؤكد لي، متخذة لهجة أكثر جدية، ثقتها كانما لتقنع نفسها بذلك. وتضيف بايمان تحرص على تجديده على أية حال؟ «اعلم انك، جدية». اؤيد دون تحفظ. بعد كل شيء، كما يغني (براسان)، لا اظلم اي شخص.

أقاس، في الماضي، في تاريخ نظامي ولا ينسى التصفيق لي كلما ازددت بعض الطول. كان تقدمي بطيئا جدا في طفولتي، ثم اعوض، في عام، الوقت الضائع، حتى ان امي تأمل الا أصبح اطول منها. ولا تخشى ان أصبح منافستها، وانما نتمنى تجنيبي السخرية التي عانتها في مطلع شبابها. كان عصر النساء القصيرات عندئذ ويقدر قليلا اللواتي يتجاوزن طولا. ثم تغيرت الامور ويبدو انني راضية عن ان اصبح مساوية لقامتها..

كف عن قياسي فليست هناك أية مفاجأة منتظرة من تلك الناحية. بالمقابل، يشار على تقويم البريد الى التواريخ، التي تصنع ايقاع حياتي، كل ثمانية وعشرون يوما. الم اكن طفلة لطيفة؟ فلا بد من السهر على طريق عضويتي الحسن. عندما تبقى امي يدا وفكرا معلقة امام كر الايام فانني لا انفعل بأي شيء. اعتقد انني عذراء، وليس لدى شيء للارتياب.

تبدو قلقة جدا قبلي. تطرح علي أسئلة، مرتبكة وغامضة اولا، ثم ادق وادق. انفي كل شيء جملة. قلما اعلق حتى ذلك الحين اهمية على البكارة، التي تبدو لي تفصيلا ضئيلا. اتجه في صلواتي بملء ارادتي الى المسيح اكثر مما اتجه الى امه. اهتم ابي، في رفضه التقى والزلية، بأن يبرهن لي كم كانت مكانة مريم ثانوية في الاناجيل. بل يضيف ان العبادة المريمية شجعت في وقت متأخر لارضاء ضفادع جرن البركة. واذا لفظت في الاعتراف كما يجب لقب (مريم المباركة العذراء دائما)، فانما افعل ذلك اليا. اما انا، فان الجوهري يبقى في رغبتي في الاستغفار واعتقد، لان تكبري كان كبيرا، انني استطيع التوجه الى الرب دون وساطة خادمته وقدسيه وفرق ملائكته ورؤسائهم.

تتضاعف اسئلة امي، على كر الايام. استمر في النفي بقوة اكبر اذ انني اطمأننت الى انني لن البث ان ارى الاعتراف ببراءتي. بيد ان شكا ضئيلا اخذ يعذبني، شيئا فشيئا، وانبذه بكل قواى. يا للشيطان، لم يكن احد قط في حكايا واساطير طفولتي.. تعلمنا (جانيت كولومبل) قوانين الحتمية العلمية واتعلق تعلق اليائسة بهذه القاعدة الجوهرية: لا نتيجة، دون سبب. لا اتوانى عن

استحضار روح (كلود برنار)[1]، الابن الشهير للبلاد الليونية. يزاد شوقي الى الانضمام الى ك في السنة التالية في كلية الاداب، القائمة على رصيف (كلود برنار) بالضبط. موضوعة تحت خير رعاية، فكيف استطيع الشك بالعلم التجريبي؟

تمضي الايام، ولا تحمل شيئا جديدا. لا احدث ك، في الايام الاولى، عن مخاوفي. يبدو لي ان الوضع غير قابل لتكريس عبثه بالاعتراف، لكن قلبي كان قليل الابتهاج. لجأت الى أكثر من سياق لتفادي الذهاب الى بيته. قلق من برودتي ولم يخمن منها السبب.

اعطي، في الثانوية، الانطباع بانني منتبهة بينما لا اسمع غير قلبي الذي لا افهم منه شيئا. كيف استطيع الانفتاح على بواكير الحكمة عندما يضطرب في فكري ما حسبته هادئا؟ ارى نفسي قميص الطالبة الازرق السماوي، بين طالبات اخريات بالازرق السماوي. قدر من الاختلاط، وقدر من العزلة.. احس، بعزلتي، ثقيلة ثقلا اليما، حتى تكاد تبددني كتلك القزمات البيض اللواتي يهربن من عالمنا. يطن صوت الاستاذة عن بعد. ادس يدي في فتحة قميصي لاحاول اكتشاف نهاية عذابي تحت ملابسي الداخلية. لا اجد فيها ما ابحث عنه فيها. كيف ينقصني الدم؟ اريد احمر في انامليِ. اريد ان يغمرني كي اعود الى الحياة. الم يكن كذلك من قبل؟ اليس اقوى من كل الاعيب السحر؟ الم يكن هناك في الماضي جريان كبير للقرمزي في شراشفي؟ كانت اول وثبة بجسمي النقه. يبشر الاحمر بعودتي الى السواء. ينبغي على ك ان يجعله يتدفق هكذا عندما سيذبح العذراء فيِ، هذا الجمع المسخ، في جسم المرأة وروح الطفل - ان لم العكس على الاقل - هذه العنزة الخرافية التي تدغدغ احلام الرجال في كل زمان ثم تصير خصبة اذ تلد المسيح وتاريخنا.

---

1) عالم منافع الاعضاء، ولد في (سان - جوليان) في اقليم الرون الفرنسي (١٨١٣ - ١٨٧٨) برهن على دور المشكلة في هضم الاجسام الدسمة، على وجود مراكز عصبية مستقلة عن الدماغ. شرح وظيفة الكبد. يحدد كتابه (المدخل الى دراسة الطب التجريبي) سنة ١٨٦٥ المبادىء الاساسية بكل بحث علمي - المترجم.

لم يقم ك بذلك، في الوقت الحاضر، فلا بد اذن للدم من التدفق وحده. لا احيا الا في هذا الغم. لن اذهب، اليوم، للقائه. اريد ان ابقى وحيدة وامشي حتى كنيسة (فورفيير) ها انني صرت زلية، انا التي لا تريد من اعماق صلواتها خاصة ان تطلب شيئا من الرب. انا التي ترفض، بقدر ما تسعفني الذاكرة، ممارسة المقايضة معه. اعطوني هذا، اعطكم ذاك. لا احب الا ان احمده واصعد نحوه بهداياي.

يا لاعياد التعميد القديمة، في الكنيسة الصغيرة في (نيول على البحر) البنيات بالابيض، اذرعتهن محملة بالازهار المنثورة الرجلة والندية براعمها في اعقاب المذابح.

أحب الابهة واحب الانطواء. أحب فوق ذلك كله ترك خيالي يحملني وقد حلمت كثيرا بين كلمات الصلوات. سمعت صدى كل كلام حتى مدى الادراك. لا اذكر انني طلبت من الرب شفائي، حتى عندما كان مرضي ما يزال يمارس تاثيره. لعله نسيان من ناحية فكر يتجه نحو الاحلام أكثر مما يتجه نحو الواقع. احسب خاصة انني لم ارغب في ادخال الرب في عذابي، فاحس دائما، في ثقتي الواسعة به، انني مدينة، اقمت لاشعوريا خط قسمة: كل ما هو خير يأتي من عنده وانا مسؤولة عما هو شر. فلن اضع نفسي مع الملحقين. الامر الوحيد الذي يمكن ان اطلبه منه بقوة، ولقد فعلت في عز عمري في العاشرة ، هو ان يساعدني كي اصير قديسة. لم تكن آلامي شيئا بالقياس الى آلام من ادعوه في ضراعتي. افكر في (بلندين)[1]، اليونية الصغيرة، افكر في (تيريز أبيله)[2]، في خوري (آر) الطيب، افكر في آباء الصحراء، في المبشرين، في (جان الصليب)[3]. اتنزه كأنني في شهرة (براش)[4] في القطار الشبح، في لسع

١) الشهيدة في (ليون)، اسلمت الى الوحوش سنة ١٧٧ ـ المترجم.

٢) ابيلة في اسبانية، وطن القديسة (تيريز) ـ المترجم.

٣) فقيه ولد في فونتبيروس (١٥٤٢ – ١٥٩١)، مصلح نظام الكرمليين ومؤلف كتب صوفية المترجم.

٤) ميشيل براش، نحات فرنسي، ولد في ليون (١٦٨٦ ـ ١٧٥٠) ـ المترجم.

الجلدات، والندوب والاهوال والشيطنات. اريدها من اجل مالي، ولا اتمنى قط، في دفقتي، البقاء مجرد متفرجة، فلا بد لي من الدخول بدوري في هذا الليل الذي ينضح متع العذاب العديدة. تلهمني كلمة بين الكلمات وقد بحثت عن معناها في معجمي.

العشق: جرح في القلب اصله فوق الطبيعة اصيب به بعض المتصوفة، وهذه حال القديسة (تيريز) دوار الدوارات، ارى كل عناصر حلمي مجتمعة في هذا التعريف؟: جرح وقلب وفوق الطبيعة ومتصوف.

ليس فقط لا اطلب شيئا من الرب، بل اشعر انني غير جديرة ببركاته. لا اكف عن مؤاخذة نفسي، وعندما يتقدم عيسى في حقل (جشماني) نحو حواريه النائمين ويقول لهم: «هكذا تقووا على السهر ساعة معي..» احس ان الخطأ يعود ليقع علي. اردت ان اصبح بفكري ابن الرب، صباح الجمعة المقدسة. اعجب من ان الاخرين ليس لديهم هذا الضرب من الاهتمام. كيف اترك في عزلته من حكمت عليه خطاياي بأفظع ميتة؟ لا بد لي، عادة دقيقة إثر دقيقة تجارب جبل الزيتون، من التعلق بخطاه ومحاولة تخيل آلامه حتى الشعور بهما. كان هناك دائما، رغم جهودي، لحظات تبتعد فيها روحي عن هذا الواجب المقدس لتحلم به في محل آخر. هكذا لم تقووا على السهر معي ساعة..

ويأتي يوم يكف فيه الوصف الانجيلي لشهيده عن ارضائي. اتعلم ان الناس في كل زمان اخترعوا لامثالهم اكبر تنوع من الالام، ادهشها، ادقها، افظها، فاتشبث عندئذ باضافة محطات الى طريق الصليب. لا يمكن لعيسى في نظري ان يكون المخلص ما لم يكن قد تعذب أكثر من أي أحد وقد كان الثمن باهظا في هذا المجال، اعاني في اسناد الالام التي لا توصف اليه، لا بد دائما من المزيد منها بغية بقاء المسيح فريدا في مجد عذاب يتجاوز كل عذاب، اخترع زخارف للالم. اجمع سرا مجموعة صور رهيبة. ارى، في هذيان خيالي، الدم يتدفق من كل الجروح الالهية التي اضبطها: الجذع، القدمين، اليدين، عدا عن الاشواك التي تتوغل في اللحم وتخترقه اختراقا اعظم مما تفعله أسوأ شقيقة.

سوف التقي في كنائس (ليما) و (اركيبا) و (كزكو)[1] هؤلاء المسحاء الملطخين بالدم الذين احلم بهم في ديجور الجمعة المقدسة.

كيف آتي سائلة للقاء من تعذب، بالتعرف، أكثر من أي شخص؟ لا يتحدث عن حبل في منزل مشنوق. لا تقدم مصيبة لا شأن لها عندما يهدي اليكم عذاب لا نظير له. ادهش كل مرة الا يحدث شيء، تحت وطأة الساعات الثلاث، في هذه الجمعات الحزينة حيث اتشبث بحركة الهوى. ليس هناك اقل زلزال، اصغر عاصفة، اي اعصار، بل لا يوجد هذا الصمت العظيم، الذي يقال انه يتبع المجازر.. لم يعلم احد بنبأ موتكم ويستمر كل شيء على حاله من قبل. تمنيت علامة من ناحيتكم. اريدها منكم من اجل هذا الغياب. هناك دائما شيء من الخيبة في الدموع التي تذرف على اولئك الذين احبوا وماتوا. لماذا اهملناهم؟ الا يستطيعون تدبر امرهم ليبعثوا برسالة، ولو مبهمة، ولو غامضة؟ لطالما كررت ان الفصح آت وانه سوف ترتدي ملابس جديدة للاحتفال بالعيد، ولا اتوصل الى الفرح بالنصر القريب جدا. رأيت عددا مفرطا من المسحاء على الصليب. توغلت في تخيل الاهوال. نسيت بها ان البعث وحده يعطي الفداء معنى.

أصعد نحو كنيسة (فورفيير). يعلن الربيع عن نفسه الان بتقدم حرارة عاصفة. انه التبعثر، في الخروج من الثانوية، وسط صيحات الفرح. احس انني وحيدة أكثر من أي وقت. يضطرب كل شيء في. اكرر لنفسي ان هذا غير ممكن، لا يمكن أن يجري لي شيء.

مضت الايام ومضى الشك في سبيله، رغم انني احسب غير معقول. ازداد دفعا له دفعا عسيرا. تتراخى عزيمتي على نضاله لحظة أثر اخرى حتى لاخمن وسط فقدان الارادة هذا علامة خيبتي، اتمالك نفسي، عندئذ، في وثبة، وأجرؤ على توقع مخرج صالح يجعلني اضحك في النهاية من نفسي وقلقي. أليس الامر أمر كابوس استيقظ منه سليمة ومواساة؟ ألست خبيرة في النقه؟ احسبني قادرة على تخيل الأسوأ لاحسن طعم الاشياء.

---

١) ليما عاصمة (البيرو) اركيبا وكزكو مدينتان فيها ـ المترجم.

فأركع اذن للاعتراف بكل الخطايا التي لم ارتكبها. اسجد، في الكنيسة، لا لأحمد الرب كما تعودت، بل لاطلب منه البركة هذه المرة. يبدو لي انني ابكي بينما الخضوع والتمرد يتنازعان روحي المسكينة. اشحن ندمي مثل اولئك الممثلين السيئين الذين يعوضون عن ضعف العاطفة بالمغالاة بالحركة والكلام. بعد كل شيء، بماذا أنا مذنبة؟ أكاد لا أرى ما يسحقني غير جهلي. فهل أصبح خاطئة دون معرفة الحب بل اللذة؟ بأية خطيئة اتهم؟ بانني هذه الهجينة من امرأة وبنية؟ هذا البطن غير الكامل والذي يتجلى الان؟ بعدم فهم شيء؟ بمعرفة الذعر حتى قبل تجربة اللذة؟ لا يمكن فعل هذا في، ومبكرا. بهذه السرعة. بهذه الفظاظة. ليس لاحد الحق. كنت واثقة وقد خدعت. تنهزم طفرلتي، وايماني، وقوتي، وكبريائي. كل شيد يتأرجح في بهو (فورفيير) الكبير حيث يحيي الفسيفساء بالوانه الصارخة ملحمة (العذراء): مريم ملكة البطاركة، مريم ملكة الشهداء، مريم ملكة الملائكة، مريم ملكة الحواريين، مريم ملكة المعترفين، مريم ملكة الانبياء. لا أدري هل اصلي ام اجدف. لا اتجه الى الرب يأسا من القضية. فالى من غيره اتحدث؟ هناك حب قديم لا يمكن التخلص منه. ياربي، قولوا كلمة وحسب فيشفى بطني ها أني أنضم الى طابور النساء دون أن أكون امرأة بيد انني وحيدة تماما.

انه بعد ظهر السبت. سألتني امي مجددا، قبل ترك المنزل، ونفيت مثل المرات الاخريات. قالت لي بأنه من المضحك عدم ارادة قبول الاشياء وان الحقيقة سوف تنفجر انفجارا.قويا في عيادة الطبيب. كان لا بد لي من الاجابة بأنه سوف يقوم البرهان، بالنتيجة على صدقي. آسف لانها بحاجة الى البرهان لتصديقي.

لدى ذكرى غامضة وثقيلة عن هذه الفترة من حياتي. كل شيء يثقل بيد انه يبدو انه ليس حقيقيا. ليس بي أي احساس، عدا الخشية. يتمدد حب ك في القلق ولا يغير في الامر شيئا انه امر عظيم اتهمه به. كان هناك فرح، في بداية مغامرتنا، جعل ليستمر ليس هناك فرح قط. السنا لعينين؟ الم تكف بعض الضمات الخرقاء حتى يغمر القلق كل شيء.

قسم ك شكوكي، منذ ان بحت بها اليه. كنت أفضل ان يكافحها، فسوف يساعدني طرد الخوف. لديه صيغ لا احبها. يقول: «لا يمكن التأكد من شيء، يجب التريث قليلا، لا اظن ولكن...» ولا نستطيع، منذ ذلك الحين، التحدث في كل لقاء، في شأن آخر. لو انه اجابني فقط ان هذا غير ممكن وانني اعذب نفسي خطأ، لشعرت بطمأنينة. شعرت انه يهملني هو كذلك. لشد ما رددت لنفسي ان هذا خطأ وانه لم يبد ابدا اكثر غراما، فلم اصل الى اقناع نفسي بـذلك. يحصل الانقلاب الحقيقي في. لن يظل أي شيء كما كان من قبل، لكن هذا لما اعلمه. يبدأ الشك يأكلني، كما يأكل امي. تتهمني بأنني خنت ثقتها، اما أنا فاتهم الناس أجمعين.

وها نحن في طريقنا من جديد لزيارة الطبيب. ليست الفتاة متعلقة بيد امها، فلها القامة نفسها والشبح نفسه، لكن الصغرى تحس دائما انها مسؤولة عن آلام كبيرتها وانها كذلك في الحقيقة. يتكرر الشريط بين فترة وأخرى. هناك هذا الضرب من القدر الذي ارفض الايمان به.

من كان طبيب زقاق (مرسيلية). نسيت اسمه ووجهه ومشيته، حتى في كوابيسي. اذكر فقط انه قال قاصدا امي: «سنفحصها.» ثم دفع باباً وجعلني ادخل غرفة خلفية. عندما طلب مني التعري، ترددت على قدر ما اجهل عاقبة الاحداث.

كان لا بد من ان ابرد. حسبي، في ذلك الوقت، الدخول الى طبيب ووجوب التمدد على احد هذه الاسرة الضيقة التي عرفتها كثيرا، حتى ابدا في الارتعاد. وعندما يفرج فخذي، ينصحني بالاسترخاء. ثم حاول ايغال قائمته الضخمة في فاحسست هناك في جنبي الاخر بألم عظيم. قال لي: «انتم عصبيون جدا». انا متأكدة من هذه الكلمات. كيف استطيع نسيانها؟ انتم عصبيون جدا. حسبت انني اكتشفت في صوته بعض السخرية. لعله يضمر انني قمت مع غيره بالاعيب اقل. صحت. مجرد صيحة. كم بذلت لكتم هذه الصيحة؟ انفجرت رغما عني. ثم سكتت. انا مريضة. يؤلمني جوفي وليست هذه

اليد الغريبة والمنقبة هي التي اصابتني باكبر الم. اتألم أكثر لانني مقطعة مثل ارنب غب سلخ جلده، لاحساسي بانني وقعت في شرك هذا الضوء الباهر، لان ركبتي في الهواء وظهري مثبت الى هذا السرير المصقع الذي يذكرني بتلك اللواتي مددت عليها لقصف جوبي بالاشعة. اركز فكري في الموقف المضحك بغية تخفيف احساسي باليد التي تتحرك في بطني. لقد فازت الان ولا يمكنني اعاقة تقدمها. كان الالم كاويا ودقيقا، عندما فهرتني، وقد كف عن ذلك. فهو ينتشر في الوقت الحاضر مقتربا شيئا فشيئا من نهاية اطرافي. وبما ان هذا لا يكفي اليد التي وجدت مكانها مهما كان الثمن، فقد شعرت بأن كل اصبع استعادت استقلالها لتتوغل في الجس. وهكذا فانا امرأة مفتوحة. توقفت اسئلتي. لا اتساءل قط اي تفتق في طريقه الى قضمي، أي طفيلي يتغذى مني سرا. لا انتظر على هذا اللوح حيث اضطجع في حزني، حكم الطبيب نفسه. ليس لهذا الاحمق، الذي لم يفهم شيئا، وجه أو هوية. لا تردد، عنده. لا بد من الدخول، حسنا، لقد دخل. لم يخطر بباله انه قد يكون الاول. قال: انتم عصبيون جدا. وهذا صحيح جدا لو لم يضف: سيدتي الصغيرة.. لطالما رأى، لطالما تسلل الى هاتيك النساء المقطعات على دف عيادته، فكيف يستطيع التفريق؟ لم يقبض ليظهر دقته، فليس هذا ما يطلب منه على أية حال. دوره بسيط. عليه الاجابة على السؤال: هل الدابة ضخمة؟ نعم؟ لا؟ اشطبوا الملاحظة الناقلة. فالباقي ليس غير شعر.

لا بد من الاعتراف انه للمرة الاولى ليس هناك زخرف وعواطف في اللقاء. يسحب الطبيب يده اخيرا. يؤكد: «تستطيعون الارتداء». انتهى الامر، فانا امرأة. اكتشفت ارضي. هذا لا يستحق عناء سرد حكايات، اليس كذلك؟ عندما يكون هناك قدر من الاغتصابات عادة غير حية، فيجب اعتبار نفسي سعيدة بانني ما زلت قادرة على لملمة آثارها وستر عاري بملابس ملائمة. انسل من ذلك جيدا بما انني لست غير نصف ميتة.

يصدر حكمه الى امي وحدها ناظرا اليها، كأن هذا لا يعنيني. لا أدهش باني حامل، في تسلسل الامور حيث يصم قدوم الاسوأ كل مرحلة.

ثم كان على امي ان تدفع، تشكر، تودع بتهذيب. نسيت. مشينا في صمت حتى رصيف (الرون). ينتظرنا ك وامه. فهما قبل ان نتكلم. تتحادث الامان بصوت منخفض، نمشي، ك وانا، جنبا الى جنب، خلفهما ببضع خطوات. احس انني معدومة ومواساة معا. يصنع ك الان مشروعات لنا نحن الاثنين، وقد شعرت، باستماعي اليه، بعودتي سوية. يقول لي اننا سنتزوج بعد ثلاثة أشهر، بعد امتحاني للشهادة الثانوية، وانه سيستلم وظيفة مدرس منذ ـام القادم. لن يمنعنا كل هذا من الاستمرار في دراستنا. ارى باحة مدرسة في (جبال الليونية)، اطفالا يركضون، اطفالي، اطفال الاخرين. اتخيل عالما سعيدا او بسيطا سوف نصبح دائما معا في تشابه الايام والليالي. سيكون هناك السلم، والثبات، وغياب الرغبات. سوف تصبح الحياة سهلة واشبه أخيرا كل الناس. لا يكفي قول «كفى» للخروج من اللعبة الى الابد؟

يضع ك كل قلبه، كل قناعته في خططه المقبلة. يريد ان ينسيني المي لكني اخمن فيه كذلك الرضا. لم يكن ممتعضاً من استطاعته الاجتماع بي بعد هذه الفترة الطويلة من التخبط والقلق. سنبني سجنا جميلا. اريد ان اوصد على نفسي، في حبه، كما يتوغل في النوم يأسا.

افترقنا، امام بيتي، وصعدت مع امي للانضمام الى أبي الذي ينتظرنا. راى راسينا وصمت. بيد انه سألني، بعد برهة، ماذا انوي ان افعل وقلت له اننا قررنا الزواج بعد شهادتي الثانوية. لم يجب. كنا نحن الثلاثة صامتين ومتضايقين. افضل صيحات، دعاء علي، دموعا، على هذا الصمت. ليس التظاهر الكبير، بالفرح او الترح، من شأن الدار. فابي سكوت، معتزل، فما ان يحس انه جريح حتى يئد نفسه في صمته. جمدني، احتقاره المستمر، في بعض اصبوحات طفولتي حتى مخ العظام. لا أطيق ان ينطوي على نفسه حتى لا يمكن امساكه او لمسه. يتغير وجهه نفسه، في تلك اللحظات. تصبح الزرقة الرمادية لنظرته، الحنون عادة، قريرة وفارغة مثل عيون التماثيل. اصبح التبدل في ملامحه ادعى الى القلق أيضا. يصير جانب وجهه، فجأة، قاسيا، يطول

انفه، يفضح الصمت كل محيط. قيل ان غيابه يتعزز ولا اتعرف قط الى وجهه الحجري. ينتصب الصنم، بعيدا، ويبدو كل المنظر حوله كئيبا. لماذا لم اسع الى ان ينزل الينا.. لا أجرؤ، بدوري، ان انبس ببنت شفة واحسب انني سبب عذابه لامر ما. وعندما يعود الى الحياة اخيرا، اشعر ان النور يدخل من جديد، لكنني لا استطيع نسيان ما جرى فاعيش في خشية الكسوف القريب.

يصمت أبي. لكن وجهه، في ذاك السبت لم يكن وجه الايام الرديئة العبوس. بيد ان له الحق. لقد خيبت أمله، خنته، خدعته. ينتظر مني المعجزات، فأحمل اليه النكبة. هذا خطئي، هذا أكبر خطأ لي.اتذكر لوحي الاول. تنقش عليه أمي مراحل درب مجد، آه كم حلمنا بعام الشهادة الثانوية الشهير هذا.. سوف يكون عام ظفري. يجب ان ادخل اصغر واحدة، وشهادتي بيدي، كما تندفع الاخريات، في رقصة المبتدئات، الى الحلبة في جولة فالس. يرتدي ثوبا أبيض جميلا. اما انا، فبنية كبيرة البطن وقد نسي ان ادعى.

يقطع ابي الصمت أخيرا. ليس في صوته أي تانيب. يسألني: «هل تريدين حقا أن تتزوجي؟» لم اجرؤ على الجواب. لعلني تمتمت انه لا بد من الاصلاح. هذا طبيعي. اريد ان اكون طبيعية. اتشبث بهذه الكلمة تشبث اليائسة. لم ارغب قط في ان اشرح لابوي ان القدر قهرني وانني أقل ذنبا مما يظنون، وان كنت انتظر طفلا. انا طبيعية. لم يدع الطبيب العكس، فيما عدا ذلك. وجدني عصبية، وحسب. قال عصبية، لم يقل عذراء. انا في الوقت الحاضر طبيعية وحامل، وان البث أن أصبح زوجة واما. ليس هناك ما يصنع قصة.

يستأنف أبي: «انت صغيرة جدا». اهز كتفي هزا خفيفا. اسلوب للقول بانه كانت هناك في الماضي امهات أصغر من ذلك، وان الحياة تعطى في امكنة أخرى قبل معرفة ما هي الحياة. انا طبيعية، ولا شيء أكثر، فيسألني أبي عندئذ فيما اذا كنت لا أحب تفادي هذا الزواج وهذه الولادة المبكرين كثيرا. يذكر بدراستي، ذوقي، حبي الاطلاع - يتحدث عن عالم سيكتشف وعن رحلات. يرغمني على ان أفتح عيني من جديد. اننا جنبا الى جنب كما كنا نعزق الخس

معا. يرمي إلي عشوائيا اسماء بلدان لن ألبث ان أذكر عواصمها عن ظهر قلب. اما زلت قادرة على الترنم بـ الاغنية القديمة: «ازهر الليلك، في جنات أبي.»؟ كان يكفي عندئذ أن أضع خدي على القشرة المحززة ليقطينة حتى تصبح كرة أرضية. أتعلم الرحلة الثابتة. كثيرا ما تخيلت مغامرات، كثيرا ما حلمت على شواطيء (نيول على البحر) لم أفلح دائما في مقاومة الخيط الذي يشدني الى عرض البحر وقد سبحت ما وسعت قواي.

يكرر أبي: «انت صغيرة جدا». اجيب بنعم دون أن أفهم جيدا. نعم من كل قلبي، نعم من كل أملي، اريد ان اكون مثل ما مضى. يحذف كل شيء ويستأنف. نعم، انني ابنتكما الصغيرة، لم اخدعكما، لم أخنكما، لم أخيب املكما. نحن الثلاثة جميعا متحدون الى الابد في ثقة الزمان الاول. لم يجر شيئا. لم يكن هناك القلق ويد الطبيب في عمق بطني انا مغلقة كتيمة، موصدة. لم يفتحني أحد. لم يكن هناك العمليات، الاشعة، الجس. انا ارض بكر. مثل السابق. ولكن متى كان هذا السابق؟ هل شخت الان حتى أحلم بالسابق فانا صغيرة جدا وعجوز جدا. لا اعلم قط من أنا. يتحدث أبي عن (جنيف). قال: «سوف يفعل لك هذا، هناك، بصورة جيدة جدا». لا اسمع غير ضجة كلماته ولايا ما ادرك معناها لا أزال ابنته بما انه يكلمني، بما أنه لا يتوغل في أحد امتعاضاته التي لا تنتهي حيث احسب كل مرة انني أفقده الى الابد. لا أفهم، مما يقوله، غير الفكرة العامة، تفلت مني التفاصيل. علمني كل شيء ولا يخطر ببالي الشك بما يقدم. وهكذا يمكن اذن العودة الى الوراء؟ العودة بالزمن؟ قالت لي امي في الماضي: من الجنون ان تلتئمي بسرعة. وهكذا يمكنني أيضا الالتئام؟ ام اسمع ابدا الحديث عن هذه الامور. فان كنت ما ازال لا افهم الطريقة جيدا، فان طبيعتها العجول تفزعني وتسحرني في الوقت نفسه. انا غائصة منذ أسابيع في ضرب من السديم حيث لا شيء يلبي رغباتي، بله ارادتي. يشبه جسمي المهزوز، المقتحم، المنتفخ تلك المفقودات التي ترى مدومة دون نهاية في صخور الساحل، حسبت انني لا استطيع السيطرة على نفسي

وانا منقولة الى ما لا اعلم، الى حيث لا ادري. يستولي علي قدر مظلم رفضت تصديقه. لا يكف عني قط، اتخبط في زبده، غير متجرئة قط على ان آمل نجدة غريبة.

يقترح علي ابي أخيرا اختيارا، أشعر انني عدت حية قبل أن استطيع القيام به أو التعبير عنه. فهو يعلمني انني ما ازال استطيع التحكم بـ الاحداث. ينصحني بالتفكير. يقول انه لا يريد ان يصر على قرار يتعلق به كل مستقبلي. تدهشني كلمة مستقبل. أحسب انني نسيت معناها خلال هذه الايام الطويلة والليالي الطوال أيضا.

الم يمنحني الطفل الذي ينبت في، الابكم الصغير الذي لم اشتبه بحضوره، نموا لوضع حد لعزلتي؟ اريد ان اصبح اثنين، اريد دخول مجال من لا نظير لها، اريد لهجة البوح الوحيدة، انا التي لا تصدق الا الحوار والعينين في العينين، اريد ان أصبح لا غنى عني لشخص ما وان يصبح أحد كذلك لي، اريد نسخة عني، اريد انا اخرى. فكيف ارفضها، وقد اهديت الي؟ الم احلم في الماضي، انا البنت الوحيدة، منذ وقت طويل، قبل الكتب، قبل المطالعة، بهذا الاخ، بأخت الروح هذه، بهذا الطفل ذي عبق السكر الذي سوف يصبح حياتي وجسدي؟ كيف انكره الان وقد اخذ الآن في التهامي؟

بيد ان اليأس هو الاقوى. الن يذكرني هذا الطفل اذا ولد، بتلك اليد المجهولة التي فتحتني؟ لا أريد انبات شيء على التعاسة. لذلك اقول نعم لما يقترحه علي أبي. نعم لجنيف. سوف نذهب الى (جنيف) خلال عطلة الفصح. ولم افكر في طلب رأي ك. اخترت محو باحة المدرسة والزواج. بيد انني لا استعيد لهذه الرحلة على شاطيء (نيول على البحر).

لن اكون هذا العام، في الجلجلة[1] بروحي. لقد خانني الرب، ولا اريد شيئا أفعله معه قط. ولا اعلم بعد ان ردى خضوع أكبر فكلما رددته اتحت له القدرة على التأثير في. يلزمني وقت طويل، وقت طويل جدلكظم الغيظ المحب،

---

١) هضبة قرب القدس، عذب المسيح عليها ـ المترجم.

ولعل كل حياتي لن تكفي لذلك. سوف اتدرب، فيما بعد، على التجديف والتحدى. سوف اصطدم، فيما بعد بعزلتي. كم مرة دخلت كنيسة لاسخر من تقواى الماضية.. كم مرة فوجئت بـ اختناقي في أعماق حلقي بنحيب فيها .. غالبا ما اردت البصق ولم اقو الا على البكاء. سوف يقول لي: امرأة حساسة. ماذا يرى الرب اذن في هذا التجاوز؟ الحق انني جرحت وانني ما ازال اتألم كلما اقتربت من مذبح.

لا أعرف قط ان اصلي، اردت نسيان الكلمات والحركات. ورغم جهودي وممارسة طويلة لعدم الاكتراث بالدين، فلن أصبح ابدا سائحة تماما في كنيسة او مسجد او معبد (تبتي)[1]. هناك هذه الرغبة التي تصعد فاردها . من الافضل التخلي عن المعركة والعودة الى الثقة بالطب القديم... هناك هذا الدواء. يكفي عطر البخور لاحياء الورع القديم.

ينقلني القطار نحو (جنيف) امي معي. ترافقنا ام حتى الحدود. فالامر امر مؤامرة نسائية. انا اصمت الثلاث. تظهر ام ك انها الاسرع كلاما . فكأنها تسعى الى اغراق الضيق تحت الكلام. تحكي امورا ليس لها اية صلة بوفدنا، بله هدفنا . جسمها بدين. يصدر، عن هذا الاسراف في اللحم والكلمات، كرم اتاثر به في ضيقي.

كنت، وانا طفلة، فخورة جدا بامي عندما تنتظرني عند الخروج من المدرسة. كانت تبدو لي دائما ، بين الامهات الاخريات، اجملهن، انحفهن، اطولهن، افتاهن، أنقهن وقد كانت كذلك في الحقيقة. لكني انادي في لحظة الهزيمة هذه، قلبا لا يحكم علي واحسب انني اخمنه عند ام ك. لقد اهدت حلوى السفر، كأنه لا بد ان يستمر اياما بلياليها . انها المغذية. الام المرضع الضخمة وابذل جهد لازدراد الحلاوة التي تهديها الى اذ لم اكن عندئذ جائعة.

بيد ان الامين استدعتا، في برهة معينة، هدف سفرنا . قالت امي انه لا بد، منذ وصولنا جنيف من استشارة اطباء كثيرين للحصول على التفويض

١) هضبة قرب القدس عذب المسيح عليها -المترجم.

وسوف يكون هذا، بلا ريب، طويلا وصعبا. تريد ام ك اظهار نفسها مطمئنة ففكرت انه اذا وجب علي ذات يوم ترك ك، فلن اجيب ان اتتالم امه لهذه القطيعة. وعندما تضيف ان العملية لن تكون مؤلة، تجيب امي بقولها انها تتمنى من جهتها رغم ذلك ان أتالم. مجرد الم ضئيل، حتى يلقنني هذا درسا اذكره وقتا طويلا. وهكذا اعد مكاني في الطابور الطويل للنساء اللواتي عليهن ان يعاقبن حيث اخطأن.

اعلم، يا امي، انني مذنبة وان أكبر أخطائي هو الخسارة التي اسببها لك، ولكن كيف تخدعين في شأني حتى تخشين نسياني؟ كيف لا تفهمين ان ذاكرتي سوق تصبح عذابي؟ اعلم انك تدعين انني التئم بسرعة ويوافقني ان ادعك تظنين ذلك، ولكن الا تحسبين ان بعض الجراح التي يعتقد بانها مغلقة تنكا في سواد الكوابيس؟ الم تسمعي الحديث عن اولئك المبتورين الذي ينبئون بتغير الجو من الالام التي توقعها الساق التي فقدوها؟ الا تشعرين ان حياتي سوف تصبح الى الأبد مشطورة؟ انه سيصبح هناك قبل وبعد؟ واذا لم يكن قبل هو الفردوس، فان جهنم بين قبل وبعد؟ اوليس هذا الكتاب هو النظرة التي القيها في الوقت الحاضر على قبل لم انس منه شيئاً؟

بل انني لاتساءل الا يصدر كل ما كتبته، في كتبي الاخرى، عن هذه الجيفة القديمة: الذاكرة. انتزعت احشاءها، حنطتها، هيأتها، زينتها، عطرتها. سعيت الى ان اجعل منها جثة فاخرة. كادت ان تصبح حسنة الهيئة. لا تتركني كثيرا. تبوغتني في أقل الاماكن والاوقات توقعا. تتبعني في اسفاري تبحث عني بين اذرعة الرجال، تنتزعني من راحة البال، تتطفل على تخدير الحب والمخدرات وعبثا فتجدد شعري وخلاياي كثيرا مع الزمن، فانها تشرق من اعماق ليلي شبيهة بها، عنقاء البؤس.

ألم أصنع كل ضروب الالام الجسدية، لأفلت من الاخرين. الم اتعلم متأخرة جدا ان الام الفكر - لا اقول الروح، فلم أجرؤ على لفظ هذه الكلمة أسوأ أيضا؟ خدعك صمتي فحسبته عدم اكتراث. الحق انه كان يمكن ان يستمر مدى

الايام ولا أدري انا نفسي لماذا اكسره اليوم. لعله كان لا بد من كل هذا الزمن لاعادة الصاق القطع.

اعتقد اننا ابتعدنا احدانا عن الاخرى، يا امي. بيد انك كنت معي في هذه الرحلة ولم انس ما ادين به لك. أحسست، نفسي في القطار الشبح يقودنا نحو (جنيف)، منهكة ومسؤولة عن عذابك. بل انني لن احتج، عندما اسلخ حية وتنتزع احشائي. لن افزع من الالم. تمنيته لي، حسنا، واتمناه لنفسي كذلك الن استطيع التخلص من الامور القديمة التي آمنت بها. ولو امكن ايلاج جذوه محرقة في جسمي، على ان يكون الثمن النسيان والنقه، لوعزت دون تردد ان يصنع ذلك. اعلم الان انه لم يكن ذاك العذاب هو الذي سيقود ذاكرتي، بل عذاب كوني قد خيبت ظنك الى الابد.

الطقس جميل. اشعر لأول مرة بأن الربيع سيحيا دوني وانني سأدعه يفلت مني. وليس هذا أقل أخطائي. الاحظ، من نافذة المقصورة، اراض اعرفها جيدا لانني تجولت فيها مع ابوي ايام الاحد.كان هذا سابقا. وليست الحدود التي أتهيأ لاجتيازها تلك التي تفصل بلدين بخط وهمي وحسب، بل انها تقيم خط الشطر في أعماقي.

لم يعد لي جسم. كأنه خدر قبل الوقت. آكل واشرب منذ بضعة أيام، حسب العادة وافعل مثل كل الناس. ما من لذة البتة. مضى الان وقت طويل على انقطاعنا عن ك وانا عن الاحتضان. بيد انه لا شيء يمنعه بما اننا تجاوزنا الخطر. كان يمكننا الاستفادة من الميزة الوحيدة التي تقدمها حالي الجديدة. لم نفعلها، على قدر ما يغرقني انعدام الشهوة الى النوم.

احس انني وحيدة، وحدة لا فكاك منها. الوحيدة. بيد ان المظاهر ضدي، هنا أيضا. الست محبوبة ومحاطة؟ فممم استطيع الشكوى؟ لم يتخل عني ك،بل انه ايد كل اختياراتي، وان لم تكن اختياراته. قبل الزواج والطفل. اقترح العمل خلال العطلة المدرسية ليشاطر في نفقة السفر الى (سويسرة). احس، في كل قول من اقواله، في كل حركة من حركاته، قوة حبه، الذي افزع منه. اين الملاك

الذي لم اكن اعرف اسمه بعد والذي انظر اليه خلسة في الحافلة؟ كان هذا من قبل، كذلك. اشعر اننا تبادلنا دورينا. يرهقني حبه، حاليا، فامزق نفسي في عزلتي، لتفاديه.

اعتقدت زمنا طويلا انني انتمي الى عالم انقضى. الم يكن جيلي آخر جيل عاش غرامياته الاولى في الجهل والخشية؟ بيد انه لا يمر فصل دون أن اقرأ في زاوية الحوادث المختلفة ان طالبة ثانوية وضعت في مراحيض معهدها، اهو صمت كصمت الصخر خنق صيحات البنية؟ كيف بدلت بملابسها خلقا لا شكل لها لستر عارها؟

لا بد من عدم اكتراث الصديق، الام، الاب، الاستاذة. لا بد من عالم عميان وصم. لا بد من عزلة قصوى لحفظ السر المأساوي لبطنها الضخم. لا بد من كل ذلك حتى تضع البنية في مراحيض الثانوية.

ذهبنا في (جنيف) من طبيب لاخر بغية الحصول على القبول في عيادة سريرية. كان علينا العثور على الاسباب الطبية، واختراعها عند فقدانها. قال لنا الطبيب الاول ان الربو يفي بالغرض. اعجبني هذا المرض، بهيأته الريفية، الذي ينسب الى عن طيب خاطر رغم انني لا ارى بم يستطيع ان يضايق حملا او ولادة. لم اكن هناك لاساوم،على قدر ما اضطرب لعدم وصولي الى جمع كل الوصفات الضرورية. كنت مضطربة جدا، في تلك الفترة، بتعقيد الخطوات حيث أشعر، فوق مأساتي الشخصية، بعبث الموقف. تخيلت لي امراض دللت في هذا المجال على انني منيعة عليها منذ نعومة اظفاري. اليس الاعجب اننا لم نفكر، امي وانا، لحظة واحدة بذكر المرض الذي عانيته فعلا؟ تمتد على الطرف الاخر من الحدود منطقة مجردة تفصلني عن ماضي. كدت اضيع عن هويتي. ابدل بجوبي امراض وهمية متالمة لان علي، في سبيل انقاذ حياتي، تدمير الحياة التي كانت آوية في بطني.

قلما يتيح لي هذا الترحال في البلاد الجينيفية الاعجاب بالاماكن. كنا في سباق مع الزمن، ولم يكن للون السماء اي تأثير في مزاجنا، بله في آذاننا.

يحب الفوز، نقطة هذا كل شيء. هل كان الطقس صاحيا؟ هل كان عكرا؟ لا ادري. عندما أعود الى التنزه، بعد سنوات، على ضفاف (ليمان)، تعود الذكريات التي ابعدها لتمزقني. لا اجد الهدوء ابدا في هذا المنظر الذي يقال انه هادئ.

لا أرى من المدينة، في ذلك الحين، غير مفترق واشارته الضوئية. لم تحفظ ذاكرتي العمارة او سير العابرين او ماء البحيرة او مقطع الجبال. لا أرى شيئا غير الضوء الاحمر. عيناي مثبتتان به ثم يشق الامل في دربه دفعة واحدة. وفوق العار والبلبلة، هناك نسمة الهواء تلك تفتح حلقي.

أشعر انني ظللت وقتا طويلا ثابتة، مسمرة في مكاني. لا أدري لماذا اخمن في نفسي، في هذه اللحظة بالذات، احتياطيا من الطاقة. سوف يتيح لي العودة الى السطح. اجل سوف اخرج، واقسم انني سوف اخرج، اليس كل شيء جائزا؟ لن يكون استئنافا، بل شيئا جديدا. لا شك انه سوف يكون في حياتي قبل وبعد. يهم حاليا اجتياز ما بينهما، بعد، نعم، بعد، سوف اصير ما لا اعرف بعد. يجري السير ببطء بينما تنتظر على حافة الرصيف ان يتغير لون الاشارة. لا البث ان اجد هويتي. يجب اولا الحصول على الشهادات كل الشهادات.. ارى صورتي تجري على الزجاج الداكن لسيارة (ليموزين). اعجب لانني حية وهذه صلاة دنيوية اتمتم بها في قلبي، ما اجمل النقه الذي ساقضيه.. سوف اتكيء مرة اخرى، على درابزون الشرفة لاكتشف حديقة ابي في نور الربيع. لان علي الا اهدر هذا الزمن، هذا الزمن الاضافي، هذه الزيادة في الزمن، هذا الزمن المنتزع من الموت الذي سوف يصبح حياتي برمتها. يجب ان املاء شربتي الى آخره. لا اريد ان اكون شحيحة. لا أريد الادخار بخيل يوميا بيوم. كما أرى الناس يصنعون حولي. ولان القدر اذلني، لانه اصر على تدميزي لانني ادين بالشعور بشذوذي الى عناده، فانني اشعر انني مدعوة الى مجد المعتزلين، وبهجة الاولياء.

كان يجب ان نكون ست او سبع نساء، في المهجع الابيض، وقد اتينا

جمعيا من (فرنسة). سألتني اهداهن عن عمري، فاجبتها مضيفة ثلاث سنوات وتظاهرت بتصديقي. ويبدو لي صغري، في ذاك الوقت، عيبا. الحق ان النساء الاخريات اكبر مني كثيرا، فهن يتحدثن عن ازواجهن خطأ لهن، عن الاولاد الذين انجبنهن، عن الذين لم ينجبنهن. ويرفقن كل بث بالاشارات نفسها، يزدن تارة بالاشارات نفسها. يزدن تارة بالاشارة الى بطونهن، وتارة بمداعبتها باليد. فألمهن يقوم هناك.

فأتذكر بغتة مستشفى (لاروشيل) وانا في السادسة من عمري. كنت لاول مرة في مهجع نسائي. طفلة بين البالغات. كان علي، عناية الصباح، غمر رأسي بالشرشف واللحاف كيلا ارى ما يجري حولي. حفظت الانطباع المبهم بأن العذاب، لدى جارت سريري، دخل من فتحة افخاذهن وقد افزعني هذا ...

واعلم، في هذه الغرفة في (جنيف)، ان علي قبل معرفة اللذة ترك الايدي الغريبة تتسرب الى مرة اخرى، سوف يكون كل شيء قد انتهى، عندما تأتي امي في منتصف النهار لاخذي.

اخرج، بعد العملية، برفق من ليلي. لم يصعدوني بعد الى المهجع. اطفو في سديم الشعور. اعرف جيدا هذه الاقامة الانتقالية، غرف الايقاظ تلك التي فيها كل ما يلزم من القوى للاحساس بالحياة. الشرشف الموضوع على جسمي العاري ابيض. انه نظيف. وانا كذلك. هناك في اعماقي لذة غريبة ولا ادع الاحساسات تطفو الا بعضها اثر بعض. تعود طازجة وجديدة. كأن منظر العدم قد صقلها. اجتزت كثيرا من الجليد حتى لا عجب في كل مرة لانني بقيت في الرحلة.

اسمع اصوات المرضات المطمئنة. وعندما ارتعدت الان، رفعت احداهن الشرسف علي، وبما ان عيني ليستا مفتوحتين، فقد استأنفن محادثتهن. انه صباح مثل غيره وسوف اقف بعد بضع ساعات. يبدو اني تحركت على سريري المرتجل، لان المرضة التي تتكلم توقفت وسط جملة، ثم قالت: «ها ان الاميرة في سبيلها الى الاستيقاظ وهي جميلة جدا.» ظننت تحت جفني المغلقين ان هذا هو اسلوبها اذ تتمنى لي حظ سعيدا.

اجزم بان ذلك الصباح ليس مثل غيره. ارى، في احد انواره الثاقبة التي تصدر احيانا عن جسم في سبات، ان حياتي لن تكون غير تذبذب من الاسوأ الى الاحسن، من الاحسن الى الاسوأ. انقلب الجزء مدا حاليا وتعطيني الريح التي تلتفت طعم المغادرة.

سوف تخرج امي من فندقها، في المدينة، لتأتي للقائي. سوف ترى فورا على وجهي ان كل شيء جرى جيدا. لست مريضة. لم اكن مريضة ابدا. الا يكفي قلب مقطعي كلمة جوبي لنصنع منها جوهرة؟[1].

---

١) بيجو.

الغلاف الأخير

نقول ابريل روائية فرنسية نشرت احد عشر كتابا:

أهل رمستر (رواية) ١٩٧٢

صيف سان فالنتان (رواية) ١٩٧٢

اسوار ادرين (رواية) ١٩٧٥

حديقة الغائبين (رواية) ١٩٧٧

سيد ليون (رواية) ١٩٧٩

زوال النعمة (رواية) ١٩٨١

اصمت يا الكباش (وثيقة) بالتعاون مع جان لابيير الكباش ١٩٨٢

جان (رواية) ١٩٨٤

الحلف الاول (رواية) ١٩٨٦

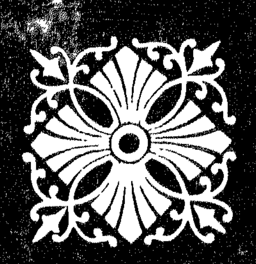
على جلد الشيطان (رواية) ١٩٨٨

اما كتابها الاخير الذي صدر عام ١٩٨٩ فهو (في جنات أبي) تتحدث فيه نقول ابريل عن نفسها لاول مرة، عن مراتع طفولتها على شاطيء نيول على البحر قرب روشل التي تقع على المحيط على بعد ٤٧٧ كم الى الجنوب الغربي من باريز. ثم يعمل والدها في ليون جنوب شرق باريز بستة وسبعين واربعمئة كم، فتنتقل وامها معه ليقطنوا في حي فقير. تكتشف رائحة الطحالب ورائحة اليود وطعم الملح ونداء الافق. تستكشف رياض ابيها، التي تضارع «جنات الله»، والتي تختلط فيها الازهار بـ الذرة والثمار المادية والرخصة. يبزغ الالم منذ السنة الخامسة، عندما تعالج البنت الصغيرة من (خد اضافي) يشوه الوجه. تعرف المستشفى ورائحة الاثير والبرد والخوف. يتجلى الالم كذلك في وقت متأخر، منذ المراهقة، في ليون، مع حب اول.

كل حياة فريدة وتشبه، في الوقت نفسه، أي حياة. تقول حكاية نقول ابريل امرا آخر. تستحضر في بضع لمسات فرنسية شبه منسية، فرنسه ما بعد الحرب، وبكلمات صائبة، وجه اب مهيمن على رياض لن تذوى ابداً.

٣٠٠٠ ط ١٩٩٥/١/١





الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٥

سعر النسخة داخل القطر
٧٥ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
١٥٠ ل.س